أعلام العرب

٥٠

احمد فارس الشدياق

بقلم

محمد عبد الغنى حسن

الدار المصرية للتأليف والترجمة

توزيع

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة

تليفون : ٩٠٨٩٢٠ — ٩٠٥١٤٧

موجز حياة

ولد سنة ١٨٠٥ ـ توفى سنة ١٨٨٧

* هو فارس بن يوسف بن منصور الشدياق من طائفة الموارنة . ولقب « الشدياق » كان فى الأصل يطلق على الشمامسة « جمع شماس » من رجال الدين ، ثم أخذ القوم يتوسعون فى استعماله حتى صار من ألقاب الشرف التى تطلق على كبار القوم من المتعلمين والكتاب الذين يرتفعون عن طبقة الأميين .

وبيت الشدياق قديم جدا فى لبنان ، يرجع الى القرن الخامس عشر ـ أى قبل الحملة العثمانية على مصر والشام بقرن كامل . وهو بيت يشبه بيت « الشهابى » من حيث انجاب المسيحيين والمسلمين على السواء .... فالأمير بشير الشهابى ـ حاكم لبنان فى أواخر القرن التاسع عشر وفى عهد الحملة البونابرتية وفى عصر محمد على ـ دفن فى كنيسة الأرمن الكاثوليك بحى غلطة بالآستانة ، على حين أعلن ابنه الأمير أمين اسلامه بينما بقى أخوه الأمير خليل على مسيحيته ...

وكذلك نجد فى بيت الشدياق أو بيت المشروقى ـ المترجم له : فارس الشدياق يعلن اسلامه فى تونس قبيل سنة ١٨٥٧

ويعتنق الدين الاسلامى على يد شيخ الاسلام هناك ، ويشرح الله صدره للدين الجديد ، فيتسمى باسم « أحمد فارس الشدياق » ، وينتقل الاسلام الى بيته ويسلم ولده « سليم » وتسلم حفيدته : « جل هانم » أو وردة ــ أو روز كما كانت تسمى فى انجلترة ــ وتتزوج من ضابط انجليزى فى الجيش البريطانى بعد أن يعلن اسلامه ، وتنجب له أولادا مسلمين أحدهم « سليم » الذى سمى بهذا الاسم تيمنا بجده لأمه : سليم ، أكبر أبناء صاحب الترجمة أحمد فارس الشدياق .

* ولد فارس الشدياق فى قرية صغيرة من قرى لبنان تسمى « عشقوت » سنة ١٨٠٥ على أصح الأقوال ، كما اعتمد ذلك الباحث الشيخ بولس مسعد وتابعه فى ذلك الدكتور محمد يوسف نجم ، وان كان المؤرخ جورجى زيدان يذكر فى تراجمه أنه ولد سنة ١٨٠٤ ، وتابعه فى ذلك الكونت فيليب طرازى مؤرخ الصحافة العربية ، والأب لويس شيخو اليسوعى مؤلف الآداب العربية وغيرهما من المؤلفين ومؤرخى الأدب المحدثين والمعاصرين . والحق أننا لا نميل أن نقطع برأى فى هذه القضية ، وان كنا نرجح رواية الباحث بولس مسعد لوضوح التأكد على عبارته من ناحية ، ولأن الدكتور فيليب الشدياق أحد أقارب المترجم له قد أقر هذه الرواية من ناحية أخرى . وانتقلت أسرته الى قرية « الحدث » القريبة من بيروت سنة ١٨٠٩ ، ثم دخل مدرسة « عين ورقة » التى تعلم فيها بطرس البستانى ، ورشيد الدحداح ، فكان ثالث ثلاثة من رواد النهضة الأدبية فى القرن

التاسع عشر تلقوا العلم فى هذه المدرسة المارونية التى كانت تعلم العربية والسريانية وعلوم البلاغة والمنطق واللاهوت.
واشتغل فارس الشدياق بنسخ الكتب لنفسه أو لغيره، وصارت له بهذا شهرة، فاستدعاه الأمير حيدر الشهابى أحد الأمراء الشهابيين ومؤلف التاريخ المشهور، وكلفه نسخ تاريخه. وتقلبت به الأحوال بين عمل وفراغ، الى أن حدثت لأخيه وأستاذه أسعد الشدياق حادثة كانت الشرارة الأولى فى تغيير مجرى حياته ... فقد تحول أسعد من مذهبه المارونى الى المذهب الأنجيلى (البروتستانتى)، وقد أثار هذا التحول سخط البطريرك المارونى على أسعد، فأخذ يتهدده ويتوعده ويسومه العذاب، ونفاه الى « دير قنوبين » سجينا معذبا حتى قضى نحبه فى سجنه وهو فى ريعان شبابه. وكان لهذا الحادث أثره الأليم فى النفوس، مما جعل المترجم له يكره الحياة فى لبنان الذى بلغ من التعصب الطائفى هذا المبلغ. وشد صاحبنا الرحال الى مصر سنة ١٨٢٥ [1] بدعوة من المرسلين الأمريكان الذين نصبوه ليعلمهم العربية، وكأنهم بذلك أرادوا أن يطيبوا خاطره نظير ما لقيه شقيقه أسعد بسبب اعتناق مذهبهم ...

وأتاحت له اقامته بمصر أن يتلقى اللغة والأدب والنحو والبلاغة والصرف والشعر على بعض علمائها وخاصة الشاعر

---

(١) هذا هو التاريخ الصحيح الذى ذكره الباحث بولس مسعد. ويذكر كتاب: « القصة فى الأدب العربى الحديث ». لمحمد يوسف نجم أن مجيئه الى مصر كان سنة ١٨٢٦

الأديب الشيخ محمد شهاب الدين الذى كان مقربا الى بيت محمد على ، وقد أعانه هذا على أن يعين محررا فى «الوقائع المصرية» [1].
ولم يكن عمله فى الوقائع مقصورا على تصحيح لغتها ـــ كما يذكر بعض مؤرخيه ـــ بل كان يشارك فى تحرير القسم العربى بقلمه وبعبارته المرسلة الرصينة التى كانت جديدة على أهل ذلك الزمان .

* وفى سنة ١٨٣٤ دعاه الأمريكان الى مالطة لغرضين أولهما : التعليم فى مدارسهم هناك ، وثانيهما تصحيح ما يصدر من مطبعتهم من كتب عربية ، وقد أخذت هنا تتجه ميوله وعواطفه نحو المذهب الانجيلى الذى اعتنقه شقيقه من قبل فى لبنان ، وعذب من أجله ، ومات عليه ... وسواء أكان اعتناقه للبروتستانتية فى لبنان قبل مجيئه الى مصر كما يستنبط الدكتور محمد يوسف نجم ، أم فى جزيرة مالطة كما يذكر الكونت فيليب طرازى ، فأن هذا التحول كان فى نظره انتقاما لما حدث لأخيه على يد الموارنة ... وقد ظل فى مالطة أربعة عشر عاما حتى سنة ١٨٤٨ . ومن أهم ما ألفه فيها من الكتب كتابه « الواسطة فى معرفة مالطة » ، وهو أول كتبه فى الرحلات .

* وقامت للشدياق شهرة أدبية لغوية وخاصة فى أوساط المرسلين ، ففى سنة ١٨٤٨ دعته جمعية « ترجمة الأسفار المقدسة» الى انجلترة ليسهم فى ترجمة هذه الأسفار ـــ أو على الأصح فى

---

(١) ذكر بولس مسعد أنه عين محررا للوقائع بدلا من الشيخ رفاعة الطهطاوى ، والصحيح أن رفاعة هو الذى عينه وعين معه الشاعر محمد شهاب الدين .

ضبطها وتنقيحها ـ تحت اشراف المستشرق « الدكتور لى » الذى كان مكلفا ترجمة التوراة الى العربية ، فلبى صاحبنا الدعوة وبدأ العمل . وأتاحت له هذه المهمة أن يطيل التجوال فى انجلترة وفرنسا وأن يتعرف الى ريفهما وحضرهما ، وأن يدرس عن كثب أحوالهما وأخلاق أهلهما ، وأن يتعلم الانجليزية والفرنسية ويقرأ لبعض أعلامهما . وأعانه ذلك على أن يؤلف كتابه الثانى فى أدب الرحلات ، وهو « كشف المخبا ، عن فنون أوربا » ، كما ألف كتابه الرائع « الساق على الساق ، فيما هو الفارياق » الذى طبع فى باريس سنة ١٨٥٢ [1] . وفى سنة ١٨٥٣ كانت مدحته الشعرية للسلطان العثمانى عبد المجيد بمناسبة الحرب بين روسيا وتركيا ، وهى قصيدة تزيد على مائة وثلاثين بيتا . وقد نظمها وبعث بها من لندن [2] ومطلع هذه القصيدة :

الحق يعلو ، والصلاح يعمر
والزور يمحق والفساد يدمر
يا مؤمنون ! هو الجهاد فبادروا
متطوعين اليه حتى تؤجروا

---

(١) هذا التاريخ كما ذكره بولس مسعد مقابلا لسنة ١٢٧٠ هـ وهى السنة التى ذكرها المؤرخ جورجى زيدان فى مشاهير الشرق . أما بقية المصادر فتذكر سنة ١٨٥٥ تاريخا لطبع الساق على الساق .

(٢) فى تراجم مشاهير الشرق جـ ٢ ص ٨٥ أنه بعث بها على يد سفير الدولة العلية فى باريس ، وهو وهم من المؤرخ زيدان بدليل أن الشدياق نفسه يذكر فى كتابه الساق على الساق أنه نظمها لما كان بمدينة لندرة (وشاعت أراجيف الحرب بين الدولة العلية ودولة روسية) ـ الساق ص ٣٨٩

في « لن تنالوا البر حتى تنفقوا
مما تحبون » الدليل الأظهـــر !

ومن عجب أن هذه المدحة ، بل القصيدة الجهادية المحضضة على صبر المسلمين في القتـــال ، كانت قبل أن يشهر الشدياق اسلامه في تونس بأربع سنوات ... وهذا مما يؤكد رأينا أن الرجل كان منشرح الصدر للاسلام في خلال رحلته الى انجلترة وفرنسا عقب مغادرته مالطة سنة ١٨٤٨

* وجاءت الى الشـــدياق دعوتان اســـتجابة للمـــدائح الشعرية .. أما الأولى فكانت دعوة السلطان عبد المجيد اياه لزيارة الآستانة جزاءً على مدحته الرائية المشار اليها ، وأما الثانية فكانت من أحمد باى تونس الذى دعاه لزيارته والاقامة معه في تونس لقاء القصيدة التى مدحه بها الشدياق وبعث بها اليه من باريس تقديرا لمبراته وخيراته التى وزعها على فقراء مرسيليا وباريس في أثناء زيارته لهما ... ولبى الشدياق دعوة باى تونس سنة ١٨٥٧ الذى بعث اليه بسفينة خاصة تقله اليه ! وقد ذكر جورجى زيدان ونقل عنه غيره أن الشدياق حرر في جريدة « الرائد التونسى » ، ولكن مؤرخ الصحافة العربية فيليب طرازى يصحح هذه الواقعة قائلا : ان هذه الجريدة الحكومية أنشأتها حكومة تونس ســـنة ١٨٦١ أى بعد زيارة الشدياق لتونس سنة ١٨٥٧ ، فكيف يكون محررا في جريدة لم تكن قد صدرت بعد ؟ وهو تحقيق سليم يصحح ما نشر خطأً بعد ذلك . وفي تونس اعتنق الشدياق الاسلام وتسمى باسم

أحمد فارس الشدياق ، بل أضيف الى اسمه لقب « الشيخ »
الذى اشتهر به فى العالم العربى الاسلامى كله .

ولم يطل مقام الشيخ أحمد فارس بتونس على الرغم من قربه من البـاى وتوليه هناك أعلى المناصب ، فلما كررت الآستانة دعوته اليها غادر تونس ملبيا دعوة السلطان ، وهناك ألحق بديوان الترجمة وتولى تصحيح بعض المطبوعات .

* وفى سنة ١٨٦٠ ــ لا فى سنة ١٨٦١ كما ذكر بعض المترجمين لسيرة الشدياق ــ أنشا صاحبنا صحيفة « الجوائب » سياسية أسبوعية ، وقد صدر أول أعدادها فى شهر يوليو سنة ١٨٦٠ بمدينة الآستانة . وكانت تطبع أول أمرها فى المطبعة السلطانية ــ وهى مطبعة الحكومة ــ ثم أنشأ لها الشدياق مطبعة خاصة بها تسمى مطبعة الجوائب أيضا ، وكان ذلك سنة ١٨٧٠ ــ أى بعد عشر سنوات من انشاء الصحيفة .

وقد نالت صحيفة الجوائب شهرة فى العالم الاسلامى لم تنلها صحيفة سواها منذ انشاء الصحافة العربية ، فأقبل السلاطين والملوك ورؤساء الحكومات العربية الاسلامية عليها ، كما كان المفكرون يتهافتون على قراءتها ، وبلغت من حسن التبويب والاتقان وبراعة التحرير وجودة الأساليب حداً جعلها أكبر صحف ذلك العهد وأوسعها انتشارا ، كما كانت مطبعتها الخاصة المسماة « مطبعة الجوائب » من أشهر المطابع فى الآستانة والشرق العربى . وقد أمدت المكتبة العربية بسيل من المطبوعات التى شاركت فى احياء التراث العربى ، واشتهرت بين

عشـــاق الكتب بجمال حـــروفها ، وحسن اخـــراجها ، ودقة تصحيحها ، حتى كادت مطبوعاتهـــا تدانى مطبوعات المطبعة الأميرية ببولاق من هذه النواحى .

أما مكانة « الجوائب » بين الصحافة العربية والعالمية فيكفى للتدليل عليها أن صحافة الغرب كانت تنقل عنها ، وتستشهد بها فى معرض الحديث عن سياسة الشرق ، كما كانت تلقب صاحبها « فارس الشـــدياق » بالسياسى الشهير ، والصـــحافى الطائر الصيت . والحق أن صلته الوثيقة بالسلطان العثمانى وبرؤساء البلاد العربية والاسلامية جعلت صحيفة « الجوائب » مركزا هاما لسياسة الشرق حقبة من الزمان .

ولم تكتف « الجوائب » بمركزها السياسى ومنبرها الشرقى الذى كانت تسمع منه أجهر الأصوات ، بل أضافت الى ذلك ميدانها الأدبى ومعرضها الحامى فى الجدل والمناظرات . وكثيرا ما قامت فيهـــا المعارك الأدبيـــة بين رجال من أمثال : الشيخ ابراهيم اليازجى ، والشيخ سعيد الشرتونى ، والدكتور لويس صـــابونجى ، والكونت رشـــيد الدحداح ، والشيخ ابراهيم الأحدب ، وبطرس البستانى وغيرهم ، وكان المرحوم عبد الله فكرى الأديب الشاعر المصرى ينشر فيها بعض مقالاته وطرائفه .

* وفى سنة ١٨٨٦ جاء الشدياق الى مصر زائرا بعد أن تعطلت جوائبه ، وأتيح للمؤرخ جورجى زيدان أن يراه (وقد علاه الكبر ، وأحدق بحدقتيه قوس الأشياخ ، واحدودب ظهره ، ولكنه لم يفقد شيئا من الانتباه أو الذكاء ، وكان الى آخر

أيامه حلو الحـــديث طلى العبارة رقيق الجانب مع ميــل الى المجون ...) وعاد الى الآستانة فكانت تلك العودة آخر أسفاره فى الدنيا ليبدأ رحلته الى الآخرة فى سبتمبر سنة ١٨٨٧ حيث وافته منيته ، ونزل به القضـــاء المحتوم بعد أن ترك فى اللغة والأدب والكتابة والصحافة والتأليف وأدب الرحـــلات فراغاً كبيراً .

ملامح عصر

ولد أحمد فارس الشدياق فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر ، فكأنه جاء ليحمل معه بوادر النهضة الأدبية والفكرية فى ذلك القرن . على أنه لا بد لنا من وقفة قصيرة على القرن الذى مهد لظهور الشدياق وهو القرن الثامن عشر الذى جاءت الحملة الفرنسية على مصر فى أواخره ثم انتهت بالخروج من مصر تجرر أذيال الخيبة فى العام الأول من القرن التاسع عشر : أى سنة ١٨٠١

ولقد ظلت أكثر البلاد العربية تحت الحكم التركى منذ الفتح العثمانى سنة ١٥١٧ م ، وكانت الحالة السيئة متشابهة فى تلك البلاد المنكوبة ، فالجهل فاش ، والفوضى سائدة ، والعقول مقيدة فى أزمة الجهالة ، والخرافات منتشرة ، والصحة متأخرة ، ولولا ذلك البصيص الضئيل من النور الذى كان يرسله الجامع الأزهر فى مصر ، والمعاهد الاسلامية فى غير مصر ، ومدارس الراهبات والكنائس فى الشام بمعناه الواسع : أى سورية ولبنان وفلسطين ، لكانت الحال ظلاما حالكا ، وليلا ممدود الرواق .

على أن تركيا — وهى الدولة الحاكمة لتلك البلاد العربية — لم تكن أحسن منها حالا ، ولا أوسع فى العلم والفكر مجالا .

فالظلام هنا كالظلام هناك ، والجهـل والأمية فى مصر والشام كالجهل والأمية فى عاصمة الخلافة ، ومقر السلطان . ولم يكن من الصعب على زائر لتلك البلاد أو رحالة جائل بها أن يميز سوء حالتها بأدنى نظرة ، فقد جاء الرحالة الفرنسى ڤولنى الى الشرق العربى وزار مصر والشام فى أواخر القرن الثامن عشر ، أو قبل مولد فارس الشدياق ببضـعة عشر عاما وسجل مشاهداته فى كتاب رحلته الذى سماه « ثلاثة أعوام فى الشام ومصر » وكان مما ذكره عن التعليم فى سـورية قوله : (ان الجهل سـائد فى سورية كما هو سائد فى مصر وسائر تركيا . وقد انتقد بعضهم هذه الحالة عبثا ، ولم يأت الكلام عن انشـاء الكليات ونشر التعليم والتهذيب بثمر : لأن هذه الألفاظ لها عندهم معان غير ما نفهمه نحن منها . انقضى عصر الخلفاء وليس من العرب أو الترك الآن علماء فى الرياضـيات أو الفلك أو الموسـيقى أو الطب . ويندر فيهم من يحسن الفصادة ، واذا احتاجوا الى العلاج بالكىّ استخدموا له النار . واذا عثروا بمتطبب آفرنجى عدوه من آلهة الطب . وأما علم النجوم فقد صار عندهم للنجامة واسـتطلاع الطوالع . وفى دير مار يوحنا بالشـوير طائفة من الرهبان لهم اتصال برومية ، ولا يقلون جهلا عن سواهم ... واذا قال لهم قائل ان الأرض تدور عدوا قوله كفرا ، لأنه يخالف الكتاب المقدس ...)

ولقـد كان فى لبنان قبل عصر الشـدياق كتاتيب لتعليم الصغار ، كما كان فى الشام ومصر كتاتيب ، ولكن جهل المعلمين

فى هذه الكتاتيب كان مضرب الأمثال ، فلا علم يرجى عندهم ، ولا تعليم ينال على أيديهم ، وكثيرا ما كان الصغار يخرجون من هذه الكتاتيب كما دخلوها ، لا يعرفون الألف من الياء ، ولا الابتداء من الانتهاء . ولا نجد أقدر ولا أمهر من الشيخ أحمد فارس الشدياق نفسه ليصف لنا هذه المكاتب ومعلميها ، فمعلم الكتاب الذى دخله الطفل فارس الشدياق أول الأمر كان مثل سائر معلمى الصبيان فى تلك البلاد ، فهو لم يطالع فى حياته كلها غـير كتاب « الزبور » الذى لا يتعلم الأولاد غـيره فى الكتَّاب . وقد انتقد الشدياق أسلوب ترجمة هذا الكتاب الى العربية فى عبارة ركيكة ، حتى كاد أن يكون ضربا من الأحاجى والمعميات . وقد جرت عادة الناس فى لبنان فى ذلك الزمان أن يدربوا فيه أولادهم على القراءة لا غير ، من غير أن تذهب همتهم فيه الى أبعد من ذلك بتـدبر معانيه وتفهم مراميه . فالقراءة عندهم آلية لا تحرك العقل ، ولا تشحذ الفكر .

ولقد أدرك الشدياق منذ طفولته المبكرة فساد هذه الطريقة التى كانت سائدة فى كتاتيب لبنان ، ووجه اليها سهام حملاته ، ولام رجال الدين ورجال الحكم على جمودهم على هذه الطريقة العقيم ، بل اتهمهم صراحة بأنهم لا يريدون لرعيتهم المساكين أن يتفقهـوا أو يتعلموا ، بل يحاولون ما أمكن أن يتركـوهم متسكعين فى مهامه الجهل ، تائهين فى بيداء الغباوة ، ولو أنهم شاءوا لهم غير ذلك من الخير لبذلوا جهودهم فى انشاء مطبعة لهم هناك تطبع فيها الكتب المفيدة ، سواء أكانت عربية أم معربة.

والحق أن المطابع العربية فى لبنــان حتى الثلث الأول من القرن التاسع عشر كانت شيئا نادرا جدا بل أقل من النادر ، فقد كانت المطبعة التى أنشأها الشماس عبد الله زاخر بالشوير سنة ١٧٣٣ هى أول مطبعة عربية [1] أنشئت بلبنان ، وكان انتاجها ضعيفا وتغلب عليه الناحية الكنسية ككتب الصلوات والمواعظ والمزامير . والحق أنها لم تساعد قط على قيام نهضــة فكرية تأليفية ، وقد تنبأ لها الرحالة ڤولنى بالمصــير الذى آلت اليه سنة ١٧٩٧ وهو توقفها عن العمل .

أرأيت كيف التقت نظرة الرحالة ڤولنى مع نظرة الشدياق فى هذه الكتب المدرسية الدينية التى لم تساعد قط على انشاء نهضة فكرية فى البــلاد ؟ على أن مطبعتى القــديس جاورجيوس ببيروت ، ومطبعة دير قزحيا الثانية لم تكونا أسعد حالا من مطبعة الشماس زاخر بالشوير فقد اهتمتا بطبع كتب المزامير والصلوات والخوارق والمعجزات ...

والحديث عن مطبعة دير قزحيا الثانية المنشأة سنة ١٨٠٨ يجرنا الى الحديث عن مطبعة دير قزحيا الأولى التى أنشئت فى أوائل القرن السابع عشر ... ووجه الحديث هنا أن حروف هذه المطبعة لم تكن بالعربية ، ولكن بالسريانية ... ويدلنا هذا على ظاهرة عجيبة فى لبنان ، فقد كانت السريانية منتشرة فيه بجانب العربية ، بل كادت تكون غالبــة عليها ... كما كانت الكتابة

---

(١) يلاحظ أن مطبعة دير قزحيا التى أنشئت سنة ١٦١٠ كانت حروفها سريانية ...

بالخط الكرشونى ـ أو الخط المارونى ـ تسير بجانب الكتابة بالسريانية والعربية . ومن أجل هذه المزاحمة القوية العنيفة للغة العربية بلغ الضعف بهذه اللغة فى لبنان قبل القرن التاسع عشر حداً لا يكاد العقل يتصوره . وهو ضعف يذكرنا بالنماذج الرديئة للغة العربية فى مصر خلال العصر العثمانى .

واذا كانت سورية بمفهومها الأقليمى السياسى اليوم قد احتفظت باللغة العربية منذ الفتح العربى الاسلامى ، فأن لبنان قد ظل منطويا من هذه الناحية ... فقد احتفظ بلغته السريانية ، ولم يكن نمو اللغة العربية بجانبها الا نموا بطيئا . ومن عجب أن رجال الدين الذين حافظوا على اللغة السريانية ونموها فى لبنان ، هم أنفسهم الذين عربوا لبنان وعربوا لغته السريانية واستبدلوا بها لغة القرآن الكريم .

ويعد المطـران جرمانوس فرحات الحلبى المولد اللبنانى الأصل صاحب فضل كبير فى « تعريب » لبنان فى القرن الثامن عشر ، وأول من أشاد بفضله فى هذا السبيل الكاتب الأديب المارونى الكبير مارون عبود ، ففى كتابه « صقر لبنان » يشير اليه قائلا : (من حلب عاد الينا المطران جرمانوس فرحات ، وقد أخذ العربية عن أحـد مشايخ العلم فيها ـ الشيخ سـليمان النحوى . وعن هذا أيضا أخذ الخورى نيقولاوس الصائغ ، والشماس عبد الله زاخـر ، عاد فرحات الى لبنان وطن آبائه وجدوده ، فكان زاوية ، بل طليعة الجيش العرمرم الذى زحفه فيما بعد من لبنان فملأ المسكونة فصاحة عـربية وأذاع لغة

القرآن الشريف فى العالمين القديم والجديد) ثم يقول عنه فى موضع آخر : (أما الفضل الأكبر فى « تعريب » لبنان ، فيعود الى المطران جرمانوس فرحات الذى قدم العربية على السريانية فى الهيكل ، وأجلسها عن يمين المذبح ... وهكذا غابت شمس السريانية عن لبنان ...)

لقد كان عجيبا كل العجب أن يؤلف رجل من رجال الدين المسيحى فى النحو العربى بما يقتضيه ذلك من الرجوع الى القرآن الكريم والحديث الشريف ... والاستشهاد منهما ، ولكن المطران جرمانوس فرحات (١٦٧٠ — ١٧٣٢) قد أزال مواطن العجب بما ألفه فى النحو واللغة والصرف من كتب ، ولهذا لم نعد نعجب اذا رأينا لبنان بعد ذلك ينجب أئمة أعلاما فى اللغة من أمثال الشيخ ناصيف اليازجى ، والشيخ ابراهيم اليازجى ، والكونت رشيد الدحداح ، والشيخ سعيد الشرتونى ، وعبد الله البستانى ، وجبر ضومط ، وأسعد داغر وغيرهم .

على أن حركة تعريب لبنان التى نماها المطران فرحات لم تكن سائرة على وجهها الصحيح ، فقد تعرب لسان لبنان حقا ولكن العربية ظلت سقيمة ركيكة ، وكانت الكتب المنسوخة والمطبوعة سقيمة ركيكة ، بل كان رجال الدين وخاصة من الموارنة لا يقيمون لسانهم فى العربية ... حتى كانت الكتب والرسائل فى ذلك العهد مثالا صارخا للركاكة والانحطاط . ولقد عنفهم فارس الشدياق فى كتابه اللاذع « الساق على الساق » قائلا : (أتحسبون أن الركاكة من شعائر الدين ومعالمه ،

وفرائضه وعزائمه ؟ وأن البلاغة تفضى بكم الى الكفر والالحاد ، والبدعة والفساد ؟ ... أما بعروقكم دم يهيجكم الى حب الكلام الجزل الفخم ، ونسق العبارة على موجب القواعد المقررة ، والافصاح عما يخطر ببالكم دون الحشو المخل ، والاعتراض الممل ؟ والتعقيد المعل ... وجعلكم الفعل الثلاثى رباعيا ، وبالعكس ، واستعمالكم ما يتعدى منه بالباء متعديا بفى وبالعكس ، واجرائكم المتعدى لازما وبالعكس ، والمهموز معتلا بالعكس ، وعدم فرقكم بين اسمى الفاعل والمفعول ، فتقولون : هم محسودون منى أى حاسدون لى ، وما أشبه ذلك . وليس كتابى هذا الدر الثمين فى أوهام القسيسيين ، حتى أستوعب فيه ذكر أغلاطكم وأوهامكم ، وانما المقصود من ذلك أن أبين لكم أن أدمغتكم قد سقيت اللحن والركاكة من وقت ذهابكم الى الكتّاب وقراءتكم فيه كتاب الزبور الى أن تصيروا كهولا ثم شيوخا ...)

ولم تكن لغة رجال الدين وحدهم فى لبنان هى المخصوصة بالسقم والركاكة ، بل كان السقم فاشيا فى لغة الحكام والأمراء والمؤلفين ، فهذا الأمير — أو المير كما كانوا ينطقونه — يوسف الشهابى كان يصدر المراسيم عن ديوانه فى لغة هاوية الى الانحطاط والرداءة ، فمن منشور له الى مطارنة جبل لبنان الموارنة يقول فيه : (ان من خالف أدنى أمر من أوامر المجمع ، لومه على نفسه ، ولم يقدر يعطى جواب ، ويندم حيث لا ينفع الندم ، بل يلزم الاتباع لها والسلوك بموجبها حرفاً حرفاً ،

لا ينقص منها ولا جزء واحد . وكذلك كلمن (أى كل من) تعارض الوكيل عرفناه خاطرنا يفهمنا عنه حتى تؤدب الناس فيه يكن معلومكم الحذر من الخلاف) .

ومعلوم أن أمراء لبنان فى ذلك الزمان لم يكونوا يكتبون الرسائل بأيديهم ، ولا يحررون المنشورات والمراسيم بعبارتهم ، بل كانوا يتخذون لهم كتّابا يكتبون لهم كما هو العهد فى الرسائل الديوانية . وقد كان أيسر الظن بهؤلاء الأمراء والحكام أن يختاروا لديوان رسائلهم أحسن الناس أسلوبا ، وأقومهم عبارة ، وأكثرهم ضبطا ، وأسلمهم وأصحهم لغة ، وأجملهم — على الأقل — خطا ... ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، أو لعلهم وقعوا على أحسن من عندهم ، فاضطروا الى استعمالهم فى الكتابة لهم ، عملا بقول الشاعر :

ولكن البلاد اذا تعرّت
وصوّح نَبْتُها رُعى الهشيم

وما كان أشد سخرية فارس الشدياق من هؤلاء الكتّاب والنساخين الذين اختصوا بالجهل حتى صار لهم مزية . فيقول فيهم : (... فلم يكن حاكم البلاد يستخدم من الكتاب الا من بذأت العين خطه ، وعاف الذوق السليم كلامه ، اشعارا بأن الحظ لا يتوقف على الخط : وأن ادارة الأحكام ، لا تفتكر الى تهذيب الكلام ، وأن كثيرا قد نالوا المراتب السامية ، والمناصب السنية وهم لا يحسنون توقيع اسمهم الشريف ...)

على أن الشعر لم يكن أحسن حالا من النثر فى ذلك العصر

الذى مهد لظهور أحمد فارس الشـــدياق ، فالشعر قَيْد" ، والكتابة النثرية انطلاق . واذا كان الكلام المنطلق غير المقيد بالأوزان هو على نحو ما رأيت قبل هذا من الضعف والركاكة ، فكيف يكون الكلام المقيد الموزون وهو الشعر ؟

ان الشعر العربى فى لبنان غير قديم ، فقد عرفت قبل هذا أن السريانية كانت تزحم اللغة العربية لأن اللبنانيين كانت لغتهم السريانية بعد الفينيقية ، ولهذا انصرفوا جملة عن النظم بالشعر العربى الفصيح . وليس يعنى ذلك أنهم لم يكونوا شعراء ، أو أن استجابتهم للطبيعة والجمـــال كانت قاصرة ، فقد يكونون نظموا شعرا عاطفيا رقيقـــا ولكنه فى غير اللغة العربية . وقد يكون قد نبغ فى لبنان القديم شعراء ولكنهم لم يقولوا لنا شعرا عربيا . وقد يكون الشاعر صلاح لبكى على حق حين يذكر لنا فى كتابه « لبنان الشاعر » حفنة من شعراء لبنان الذين نظموا قديما باليونانية أو اللاتينية أو غيرهما من أمثال أنطيباتر الصيدونى ، ودورته الصـــيدونى الذى وضع قبل ميـــلاد المسيح ملحمة باليونانية عن أسرار الفلك وبدائعه .

لقد ظل لبنـــان بعد الفتح العربى معـــزولا حتى فى اللغة العربية . ولما بدأ الجَبَلُ يتعرب ــ أو يستعرب ــ بفضل جهود رواد من أمثال المطران جرمانوس فرحات فى القرن السابع عشر بدأنا نجد للبنان كلاما عربيا وشـــعرا عربيا ، واذا كان هذا الكلام وذلك الشعر اللبنانى لم يبلغا مستوى الجودة ، فقد كانا

على كل حال توطئة لنهضة الأدب والفكر واللغة العربية فى لبنان فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين .

على أنه اذا كان لرجال الدين فضل فى تعريب لبنان ، فان للأمراء والحكام من بيت المعنيين والشهابيين مشاركة فى الحركة الأدبية العلمية التى كانت على قدرها فى ذلك الزمان ، واذا لم يظهر فى عصر الأمير فخر الدين المعنى ١٥٧٢ — ١٦٣٥ الا بعض مدائح شعرية أشار اليها المؤرخ المحبى صاحب «خلاصة الأثر» ، فان الأمير بشير الشهابى — وقد ظهر فارس الشدياق فى عصره — كان له من الشعراء جماعة فى بلاطه منهم الخورى أرسانيوس الفاخورى ، والقس حنانيا المنير ، وتقولا الترك ، وبطرس كرامة ، وناصيف اليازجى .

ومن عجب أن حركة التعريب فى الشعر اللبنانى التى بدأت فى القرن السادس عشر ظهرت أولا فى صور الشعر العامى والزجل ، ثم تطورت الى الشعر العربى التقليدى على يد أمثال نقولا الترك وبطرس كرامة ، ثم انتهت الى الشعر العربى الفصيح الجيد الرفيع الصياغة كشعر الأخطل الصغير وأمين نخلة وشبلى الملاط ووديع عقل ؛ والشعر الرومنطيقى ويمثله يوسف غصوب والياس أبو شبكة ؛ والشعر الرمزى وخير ممثليه الشاعر سعيد عقل ...

ومن أقدم شعراء الزجل العامى باللسان العربى فى لبنان المطران جبرائيل اللحفدى المعروف بابن القلاعى والمتوفى سنة ١٥١٦ ، فلهذا المطران وللبطريرك يوسف العاقورى — من رجال

القرن السابع عشر — أشعار كثيرة بالعامية . ولعل نموذجا واحدا من شعر المطران ابن القلاعى التاريخى يصور لنا الشعر فى جبل لبنان قبل استعرابه : قال المطران مؤرخا :

والذين كانوا على « المدفون »
أخذوا سلاح الذين هربون
وفى الليل دخلون « البترون »
وجدوا الناس فى اطمئنان ...

من هذا المثال الواحد فقط نستطيع أن ندرك مدى التطور الذى بلغه الشعر العربى فى لبنان قبيل مولد أحمد فارس الشدياق على يد شاعر تقليدى مثل بطرس كرامة ، فنحن ندرك هنا أن أسلوب كرامة فى الشعر العربى قد استقام بعض الشىء ، وان كان الغرض الشعرى لا يزال تافها سخيفا كالتهنئة بختان طفل ، أو ولادة غلام ، أو بناء دار ، أو حفر جدول ، اسمعه مثلا وهو يقول شعرا يدعو فيه زميله الشاعر « نقولا الترك » الى زيارته :

يا ذا الخليل الذى فى قوله ثقة
والدر فى نظمه الوضاح منتظم
زرنى وكن منصفا حبا بعهدك لى
انى لوفدك بالمرصاد ملتزم !
ها قد أتى لك برذون [1] ووعدك لى
قد حان ، والشوق عندى شأنه ضرم

---

(١) البرذون : نوع من الخيل التركية .

فقــم وبادر فتحظى فى ســنا فرح

ولثم كف أمــير زانه الـــكرم !

أما الأمير فهو حاكم جبل لبنان بشير الشهابى ، وأما البرذون فهو الدابة أو المطية التى أرسلها الشاعر كرامة الى زميله الشاعر ليستقدمه عليها الى زيارته !!

على أن أحمد فارس الشدياق لم يكن راضيا عن الشعر اللبنانى فى عصره ، وعلى الرغم من ذلك عانى نظم الشعر على طريقة القدماء وتقليدهم ، ومن هنا أدخل نفسه فى عداد منقوديه من الشعراء الذين يقول فى شعرهم : (فأما الشعر فى عصرنا هذا فانه عبارة عن وصف ممدوح بالكرم والشجاعة ، أو وصــف امرأة يكون خصرها نحيلا ، وردفها ثقيلا ، وطرفها كحيلا ... ومن تعمد قصــيدة جعل جل أبياتهــا غزلا ونســيبا ، وعتابا وشكوى ، وترك الباقى للمدح ...) [1]

وسنتناول شعر الشدياق بما هو خليق به من الدرس والنقد فى فصل مقبل .

هذه بعض الملامح الأدبية الخاطفة للعصر الذى مهد لظهور أحمد فارس الشدياق ، على أنه هناك بعض ملامح دينية لا بد منها حتى يستوفى البحث أجله ، وحتى ندرك الظروف الطائفية التى كان يعيش فيها لبنان فيما قبل القرن التاسع عشر ، لنستطيع أن نفهم سر تلك الحملات القاسية التى كان يوجههــا فارس الشدياق الى رجال الدين قبل أن يعلن اسلامه فى تونس ..

---

(١) الساق على الساق ــ ص ٥٦

الطائفية البغيضة وخلافات المذاهب

لقد بدأ لبنان منذ النصف الثانى من القرن السابع عشر — أو فى سنة ١٦٥٣ — يأخذ وضعا خاصا بالنسبة لعلاقته مع الغربيين . فمنذ ذلك التاريخ رأينا البعثات الدينية والارساليات الأجنبية تتوافد على أرضه وقمم جباله وأوديته وسهوله وثغوره بصورة تلفت النظر . وكانت هذه البعثات الدينية اليسوعية ذات نشاط كبير .

على أن أمل البابوية فى ضم الكنيسة الشرقية اليها كان يرتد الى ما قبل هذا التاريخ ، ففى النصف الثانى من القرن السادس عشر أرسل البابا الى الشرق العربى راهبين يسوعيين لجس نبض الطائفة المارونية ، ولدراسة حالة الطوائف المسيحية فى لبنان عن قرب ، وعاد المبعوثان البابويان الى روما يحملان مقترحات منها قبول طلاب لبنانيين فى الكليات الاكليريكية بروما ، وانشاء بعض المدارس الصغيرة فى قرى الجبل ، وانشاء مطبعة لطبع الكتب الدينية بالعربية والسريانية فى روما أولا ...

ولم تخص الدعاية الكاثوليكية البابوية طائفة الموارنة وحدهم بنشاطها فى لبنان ، بل اتجهت الى طائفة السريان والكلدان . ولم تألُ الكنيسة البابوية جهدا فى ضم المترددين

من رجال هذه الطوائف اليها ، وحملهم على الانضواء تحت لواء الكرسى البابوى بمختلف الطرق والأساليب .

ولم يقل نشاط طائفة الروم الأرثوذكس عن نشاط الروم الكاثوليك فى التنافس على انشاء المدارس والمؤسسات والبيع ، بل على انشاء المطابع التى كانت تنتمى واحدة منها أو أكثر الى واحدة من هذه الطوائف .

ولما ألغى البابا جمعية التبشير اليسوعى سنة ١٧٧٣ ترك المبشرون الكاثوليكيون لبنان وأغلقوا وراءهم مؤسساتهم ومدارسهم ، ولكنهم عادوا اليها سنة ١٨٣١ عندما رأوا المبشرين الأمريكيين أخذوا يتوافدون على لبنان منذ نهاية العقد الثانى من القرن التاسع عشر . ففى سنة ١٨٢٠ بالذات — حينما كانت سن فارس الشدياق خمسة عشر عاما — وفدت الى بيروت أولى بعثات التبشير الأمريكية ، وهى الانجيلية البريسبيترية ، وبدأت نشاطها فى ظروف صعبة ، ولكنها استقام لها أمرها بعد ذلك ، وخاصة فى عهد ابراهيم بن محمد على الذى ساعد بعثات التبشير فى لبنان على أداء رسالتها .

ولقد بدأ رجال الدين وخاصة طائفة الموارنة ينظرون الى حركات التبشير الأمريكية بعين الريبة والحذر ، كما بدأ التنافس الشديد بين اليسوعيين من ناحية والانجيليين — أو البروتستانت — من ناحية أخرى يظهر بصورة واضحة . وقد كان من الممكن أن تظل المنافسة محمودة بين المذهبين ما دامت ستؤدى فى النهاية الى الاكثار من فتح المدارس والكليات وانشاء المطابع ونشر

الكتب الثقافية المفيدة سواء أكانت قديمة أم حديثة ، مؤلفة أم معربة . فقد كان كل واحد من الفريقين راصدا لصاحبه ، فاذا أنشأ المرسلون البروتستانت مدرسة فى مكان ما من الجبل سارع اليسوعيون الى المكان نفسه لينشئوا أمامه مدرسة . وبذلك تربح البلاد مدرستين اثنتين بدلا من مدرسة واحدة .

ويروون فى هذا الصدد تلك النكتة الظريفة التى رواها أحد المرسلين الأمريكان ، فقد كان ذاهبا الى احدى المدن اللبنانية ليشيد فيها مدرسة على المذهب الانجيلى ، فلما سئل عن وجهته أجاب بأنه ذاهب الى مدينة كذا ليفتح فيها مدرستين ... ومعنى هذا أن اليسوعيين لن يتركوه ينشىء مدرسة فقط ، ولكنهم سيذهبون الى المدينة نفسها لينشئوا فيها مدرسة لهم .. فكأنه بذلك ذاهب ليفتح مدرستين !

ويشير الأستاذ مارون عبود الى هذه الحركة قائلا : (كانت منافسة مذهبية فأفاد منها لبنان وازدهر العلم والأدب فيه) .

ولكن من سوء الحظ أن هذا النشاط المذهبى أخذت تضيق به صدور بعض أتباعه ، بل تضيق به صدور كثير منهم . ونظر الموارنة الى حركة التبشير الأمريكية نظرة مريبة ، وعدوا هؤلاء المبشرين البروتستانت مضللين ضالين ، وحذر بطريرك الموارنة أبناء طائفته من الوقوع فى شرك هؤلاء المبشرين ، وأنذر من ينخدع فيهم وينقاد لهم « بالحِرْم » . وقد اشتهر بطريرك الموارنة — فى أول عهد فارس الشدياق بالشباب — بالصرامة والحزم والاجتراء على تعقب مخالفيه أو الخارجين عن طاعته .

ويروى لنا مؤلف تاريخ مقاطعة كسروان اللبنانية فى أخبار سنة ١٨٢٥ أنباء هذه الحركة قائلا : (... من برهة قد حضر الى بيروت مرسلون بيبليشيون ــ نسبة الى البيبل ــ أى انجيليون « البروتستانت » قصد الانذار فى لبنان فى شيعتهم ومعتقدهم الفاسد . فتصدى البطرك يوسف حبيش لمقاومتهم بأشد غيرة ، وأبرز ضدهم منشورين بهما ينبه ويحرض ويحتم على أبناء طائفته ليكونوا محترصين من غشهم وخداعهم . ففى المنشور الأول يحتم الحتم الجازم بكلمة الرب العزيز سلطانها على الجميع بأن لا أحد يقتنى كتبهم أو يبيعها أو يشتريها أو يهبها أو يطالع بها أو يقرأ ، ولا بأية علة وسبب كان . ثم يمنع الاشتراك معهم بالصلاة ، والتعلم فى مدارسهم أو مطالعة مؤلفاتهم . وأن الذى يخالف ذلك جميعه بجسارة ، أو يمنع نفوذ هذا المنشور ، فان كان اكليركيا فليكن ممنوعا بذات الفعل من التصرف بدرجته ، وان كان علمانيا ــ أى ليس من رجال الدين ــ فليكن ساقطا تحت طائلة « الحرم » المحفوظ حله للسلطان البطريركى ..) .

أما المنشور البطريركى الثانى فيحتم على جميع أبناء الطائفة المارونية أن يتجنبوا البروتستانت (التجنب التام فى التصرفات والمعاطاة كافة ، سواء كانت بأمور الديانة ومتعلقاتها ، أم بأمور عالمية ؛ أى أنه لا يصير مع هؤلاء الأشخاص لا بيع ولا شراء ولا قرض ولا استقراض ، ولا تعلم فى مدارسهم حتى المفتوحة منها لتعلم القراءة البسيطة ، ولا أحد يعلم بها أى علم كان ، وبأى لغة كانت ... ويمنع الاستخدام عندهم ، والتردد عليهم .

ومن تجاسر وخالف هذا الحتم يربط ان كان اكليريكيا ، وان كان علمانيا يسقط فى الحرم الكبير) .

هذه هى روح الموارنة ــ وعلى رأسهم بطركهم يوسف حبيش ــ نحو حركات التبشير الأمريكى ، ونحو المائلين الى مذهبهم منهم . ومن سوء الحظ أن شقيقا لفارس الشدياق اسمه « أسعد » قد مال الى المرسلين الأمريكان واعتنق مذهبهم فثارت ثائرة البطرك عليه ، فاضطهده وعذبه ، وأمر بسجنه فى مكان منفرد بدير سيدة قنوبين ، وأطلق البطرك سراحه بعد توسط من أسرة الشدياق الكبيرة ومن أعيان الطائفة ، ثم عاد يتعقبه حتى أعيد الى السجن ، حيث وافته منيته سنة ١٨٣٠ بعد أن قاسى أشد أنواع العذاب [١] .

هذا التحول من مذهب الى مذهب فى اطار دين واحد كان يعد فى لبنان اقداما على جرم خطير ، فما الشأن اذا كان التحول من دين الى دين ؟ لقد أثر هذا فى نفس الشيخ أحمد فارس

---

(١) من الحق أن نقول ان حادث تعذيب أسعد الشدياق واضطهاده من رجال الدين الموارنة ظل يؤرق أخاه أحمد فارس ويثير سخطه على المتعصبين من رجال الدين ، فأطلق فيهم لسانه بالغميزة والتهكم والسخرية فى أكثر ما كتبه من كتب ومقالات . ويمكن الرجوع الى هذه المغامز والمضاحك فى كتبه الآتية : الواسطة فى أحوال مالطة . صفحات ٧٦ ــ ١٥١ ، وفى كتابه الساق على الساق ، فى الصفحات الآتية من طبعة يوسف توما البستانى بالقاهرة : ١٠٢ ــ ١٠٣ ــ ١٠٤ ــ ٢٦٦ ــ ١٥ ــ ٢٠ ــ ٢٨ ــ ٣٢ ــ ٣٥ ــ ٥٨ ــ ٥٩ ــ ٦٠ ــ ٦٩ ــ ٧٢ ــ ١٠٢ ــ ١٠٨ ــ ٣٧ ــ ٥٤ ــ ١٤٥ ــ ١٧٨ ــ ٣٣٣ ــ ٢٥٠ ــ ٢٥٣ ــ ٤٨ ــ ٢٠٢ ــ ٢٥٨ ــ ٢٥٩ ــ ٢٦١ ــ ٢٦٢ ــ ٢٧٢ ــ ٢٧٦ ــ ٣٨٦ ــ ٢٦٦

كما يمكن الرجوع الى شىء منها فى منتخبات الجوائب .

الشدياق فرأيناه يندد فى غير موضع من كتبه بالخلافات المذهبية . والمخالفات الرأيية ، والخصومات الفكرية التى تؤرث العداوات وتولد الأحقاد . فيقول فى سخرية لاذعة : (أيها الناس ! فرار من غرور النفس ، وحذار من قرور الرمس ! وبدار الى عمل صالح يقربكم الى الله ، ويلائم بعضكم ببعض وأنتم فى الحياة . أتموتون وفى قلوبكم الحقد على خصومكم ، وفى أفواهكم اللعن على مخالفكم فى زعمكم ؟ ألم يقل لكم الحق : كونوا يا عبادى على الأرض اخوانا ، فانكم من أب واحد وأم واحدة وانكم جميعا لميتون ؛ سواء كنتم ذوى وجوه سمر أو حمر أو صفر أو سود أو بيض) . ثم يصور لنا صورا ساخرة من الخلاف التافه الذى يصطرع الناس ويتخالفون عليه فى مسائل صغيرة يكبرونها بوهمهم ، ويعظمونها بتعصبهم لرأيهم ... كالخلاف على عدد درجات السماء !! (فقال بعض : ألا ان درجات السماء مائة وخمس . فقال غيره : ألا انها مائة وأربع ! فقال آخر : لقد كذبتما واستوجبتما قطع اللسان . وسمل العينين . وسلّ الأنثيين ! انما هى مائة وست ...) وهكذا يستمر الخلاف على عدد دركات « سقر » بما يستوجب رمى المخالفين بالالحاد والضلال ووجوب غل اليدين والرجلين ، كما يستمر الخلاف على طول قرن الشيطان حتى يبلغ الأمر بالمتخالفين أن يرمى بعضهم بعضا بالافك الفاضح ، والبهتان الواضح ...

ويسلم فارس الشدياق بأن الخلافات قد توجد بين أهل الأديان والآراء ، ولكنها لا تفسد قضية الود ، ولا ينبغى أن

تكون سببا يمنع من الصفاء والمؤالفة . ويوجه الخطاب الى أمراء جبل لبنان وكبرائه ومطارنته قائلا : (وأنتم يا سادتى الحكام والمشايخ والكبراء والمطارنة : جربوا مرة أن تجتمعوا بأهلكم وأزواجكم مع أهل جيرانكم « ولا تفوته النكتة هنا لأن المطارنة لا يتزوجون .. ! » وأن ترفعوا فرق المذاهب من بينكم ، فذلك أدعى لكم الى الحظ والسرور ... اعلموا هداكم الله أن فرق الآراء فى الأديان لا يمنع من الألفة والمخالّة)[1] .

ولله ما كان أسمح فارس الشدياق وأبعده عن التعصب وهو فى سن الشباب فى الجبل قبل مجيئه الى مصر . ولقد كان طيب العلاقة مع المسلمين قبل اسـلامه بكثير ، كما كان يدافع عن الدروز ، ويعطف عليهم ، ويكذب من يزعم أنهم لا عهد لهم ولا ذمة ، على الرغم مما كان بين قومه وأهله المسيحيين وبين الدروز من خلافات ومناوشات[2] .

(١) الساق على الساق : الكتاب الثانى ص ٢٣٩

(٢) المصدر نفسه ص ٢٦ ــ الكتاب الأول .

مصادر ثقافة

لقد أنبأنا فارس الشدياق فى الصفحات الأولى من « الساق على الساق » أن الفارياق — وهو فارس الشدياق نفسه — دخل كتاب القرية اللبنانية فى « الحدث » ولو استطاع والداه أن يبعثا به الى البصرة والكوفة ليتعلم العربية لفعلا ؛ ولكنهما لم يكن فى طاقتهما ذلك . فقد كانت مواردهما ضيقة ، وكان دينهما أوسع من دنياهما ، وصيتهما أكبر من كيسهما ... والحق أن الكوفة والبصرة فى عهد الشدياق لم يكن فيهما من علوم العربية ما يحرص على تعلمه ... ولكن الشدياق تذكر قديم عهدهما ، وسالف مكانتهما فى علم النحو والعربية أيام كانت مذاهب النحو تصدر عنهما ، وتخرج منهما ...

ويصف لنا الشدياق معلّم الكتّاب فى القرية ، فلم يكن بدعا من معلمى الكتاتيب فى عصره ... ولم يطالع مدة حياته كلها سوى كتاب الزبور — أو مزامير داود — الذى يعلمه الصبيان من غير فهم ... وكانت رداءة ترجمة هذا الكتاب الى العربية وسقم عبارته مما يجعله ضربا من الألغاز لا تدركه العقول وكذلك كان الصغار — مع جهل معلميهم بالعربية والخط

والحساب والتاريخ والجغـرافية ــ يخرجون من الكتاب كما دخلوه ، فلا كسبوا علما ، ولا وسعوا فهما ...

ولكن الشدياق قد أفاد من الكتب التى كان ينسخها أبوه ، وهى كتب كانت أكبر من سنه وعقله ... الا أنه كان يغـالب صعوباتها بطول الصبر على قراءتها ، ويذكر لنا المؤرخ جورجى زيدان أنه « كان فيه ميل غريزى لقراءة الكلام الفصـيح ، والتبحر فى معانى الألفاظ الغريبة التى يعتمد عليها فيما يقرؤه من الكتب التى فى مكتبة والده ، لأن والده كان قد أحرز كتبا عديدة فى فنون مختلفة » .

ولما توفى والده وهو صغير اضطر هو أن يحترف مهنة والده فى نسخ الكتب ، وقد كانت له براعة فى الخط ورثها عن والده ، وما أصدقه وهو يصف لنا فى عبارة مؤثرة كيف كانت أمه حزينة على فقد زوجها ، وكيف كانت تنفرد فى كل صباح وتندب زوجها وتتحسر عليه وتذرف الدمع لفقده [1] . وكانت تتحامى أن تقع عليها عين ولدها الصغير وهى تبكى والده فتزيد أحزانها ، ولكن فارسا كان يتفقدها وهى لا تراه فى خلوتها ، ويبكى لوحشتها ووحدتها أشد البكاء . وكثيرا ما كان يدفن همومه وأحزانه ويتشاغل بالكتابة وغيرها . ولعله قد جود الخط على مسـايل الدموع ... ومنذ تلك اللحظة عرف الشدياق أنه لا ملجأ له بعد الله غير كده ، فعكف على « النساخة » واتخذها صناعة له ولكنه

---

(١) الساق على الساق ــ لأحمد فارس الشدياق .

يعترف لنا بأن هذه الحرفة ــ أى نسخ الكتب ــ منذ خلق الله القلم لا تكفى المحترف بها ، ولا سيما فى بلاد تقدس الدرهم ، وتعبد الدينار ... ولعل ما أفاده من النساخة كما يقول هو التجويد من خطه ، والترقيق من فهمه .

ويروى الكونت طرازى فى كتابه « أصدق ما كان » أن خزانة كتبه وخزائن بعض الكنائس فى لبنان تحوى مجلدات عربية وسريانية مكتوبة بخط فارس الشدياق وممهورة فى أواخرها بهذه العبارة : كتبه عبد ربه الرزاق ، فارس بن يوسف الشدياق » .

ولقد كان أكثر الكتب التى نسخها فارس الشدياق لذلك العهد دينية ركيكة العبارة ، ولكنها على كل حال قد عودته الصبر على القراءة ، ومعاناة المطالعة ، وجعلته أليف الكتب ، حتى صار بعد ذلك لا يفلت منه كتاب من كتب المصادر مخطوط أو مطبوع .

ولما شاعت براعته فى النسخ استدعاه الأمير حيدر الشهابى من أمراء الشهابيين ليجمع له تاريخه الكبير المسمى « تاريخ الأمير حيدر » ويشتمل على ثلاثة كتب : الغرر الحسان فى تواريخ حوادث الزمان ، والروض النضير فى ولاية الأمير بشير ، ونزهة الزمان فى تاريخ جبل لبنان . وكان للشيخ ناصيف اليازجى مشاركة فى هذه العملية . ويشير فارس الشدياق الى هذا قائلا فى ساقه : (انه ــ يعنى نفسه ــ لما شاعت براعته فى النسخ أرسل اليه من اسمه على وزان بعير بيعر ــ يعنى أمير

حيدر !! ـ يستدعيه لنسخ دفاتر كان يودعها كل ما كان يحدث في زمانه . وليس الغرض من ذلك افادة أحد من العالمين ، وانما كان امساكا للحوادث من أن تنفلت من مدار الأيام ، أو تنفك من سلسلة الأحوال) .

ولقد حببت النساخة صاحبنا فى الكتب فأقبل على مطالعتها والتهام مادتها وحفظ ما فيها ، وكانت له حافظة قوية وذاكرة حاضرة أعانتاه بعد ذلك على الافاضة فى التأليف اللغوى ، واستحضار الشواهد التى لا حصر لها بأدنى جهد وأيسر كلفة .

وزاد حب الشدياق للكتب وغرامه بها حتى بات حريصا عليها كل الحرص ، ضنيناً بها كل الضن ، ويصور لنا همه الشاغل حين مرض فى أحد أسفاره ومعه خزانة كتبه فخاف أن يموت ويحرم كتبه التى سهر الليالى فى نسخها ، فيقول عن الفارياق ـ يعنى نفسه : (ثم ان الفارياق كان حال مرضه يفكر فيما جرى عليه وهو وحيد غريب لا مؤنس عنده يسليه ، ولا طبيب يداويه . وكان يقول فى نفسه : اذا مت على هذه الحالة فمن عساه يتمتع بكتبى هذه التى سهرت الليالى على نسخها ؟!) .

ولقد كانت « الكتب » دائما هى مصدر التعلم الدائم عند فارس الشدياق ، وقد زحمت عنده كل مكان ، وملأت كل ركن ، حتى ليصور لنا نفسه مرة وهو جالس على كرسى وأمامه مائدة عليها كتب كثيرة ليس بينها صحفة من صحف الطعام ! وبين أصابعه قلم طويل ، وبين يديه دواة فيها حبر كالزفت !!

ولعل خلو المائدة من صحاف الأكل كان اشارة منه الى أنه كان يهتم بغذاء عقله لا بطعام بطنه ...

وكان جو الكتب وخزاناتها الذى نشأ فيه فارس الشدياق منذ طفولته يزيد من ايمانه بقيمة المكتبات فى البيوت ، وكان يؤثر الكتب فى البيت على التحف والألطاف ويقول فى ذلك : (ليت شعرى [1] : أليس وجود مائة كتاب بدارك — فى الأقل — خيرا من وجود كذا وكذا قصبة للتبغ ، وكذا وكذا أركيلة — أى شيشة — مع أن ثمن المائة كتاب لا يوازى ثمن ثلاث قطع من الكهرباء . أليس وجود مطبعة فى بلادك أولى من هذه الطيالس الكشميرية أو تلك الفراء السمورية ، وهذه الآنية النفيسة والحلى الفاخر ، فان الانسان اذا نظر الى الحلى لا يستفيد منه شيئا لا لبدنه ولا لرأسه ، وغاية فرحه به انما هو الشهر الذى اشتراه فيه ، فاذا مضت عليه أشهر استوى عنده وسقط المتاع ، فلم يبق منه ما يسره من وجوده سوى بيعه . فأما الكتاب فانه كلما مرت عليه السنون زادت قيمته وكثرت منافعه . أوليس اطلاعك على التاريخ والجغرافية وآداب الناس زينة لك بين اخوانك ومعارفك تفوق زينة الجواهر ؟ أليس تعليم أهلك وذويك شيئا من ذلك ومن قواعد لازمة لحفظ الصحة من كتب الطب يكسبك عند الله أجرا ، ويؤمنك من مضار كثيرة تتطرق اليهم لجهلهم بها ؟) .

---

(١) الساق على الساق — الكتاب الثانى — ص ٢٨٠

فالكتب عند فارس الشدياق هى معلمه الأول ، وهى النبع الأصلى لثقافته اللغوية الأدبية الواسعة ، على أن التعليم النظامى فى مدرسته لم يكن الا سببا آخر فى توجيهه نحو مناهل المعرفة يعب من رحيقها ما طاب . واذا كان معلم كتاب القرية لم يفده شيئا فى طفولته ، فان « مدرسة عين ورقة » التى دخلها بعد الكتّاب استطاعت أن تمده بفيض لا بأس به فى اللغة السريانية والعربية والنحو والمنطق وعلوم البلاغة واللاهوت .

ومدرسة « عين ورقة » هذه لا بد من الوقوف عندها لحظة ، فانها المدرسة المارونية فى لبنان التى أمدت النهضة الأدبية فى القرن التاسع بحفنة طيبة من الرجال الذين كانوا من دعائم الحركة الأدبية واللغوية والعلمية ، فقد نبغ منها وتخرج فيها أحمد فارس الشدياق ، وبطرس البستانى ، ورشيد الدحداح من رجال الأدب والعلم ، كما تخــرج فيها البطاركة يوسف حبيش ويوسف الخازن وبولس مسعد ويوحنا الحاج .

ولقد أنشئت هذه المدرسة منجبة الأعلام والرواد فى القرن الثامن عشر ، وكانت ديرا يحمل اسم مار أنطونيوس ، فعقد البطرك المارونى يوسف أسطفان العزم على تحويل الدير الى مدرســة أقرب الى الاكليركية منها الى العلمانيــة ، على مثال المدارس التى أقامتهــا الكنيسة الــكاثوليكية فى روما . وتم انشاؤها سنة ١٧٨٩ بتشجيع من الشيخ غندور سعد الخورى الذى كان فى ذلك الحين قنصلا لفرنسا فى بيروت .

ومدرسة عين ورقة هى احدى حسنات الموارنة فى لبنان ،

وهم أصحاب الفضل فى انشاء المدارس هناك منذ النصف الثانى من القرن السادس عشر ، فكأنهم أرادوا أن يضـيفوا شعاعا ــ ولو قليلا من النور ــ فى الظلمات التى جاءت على أثر الفتح العثمانى .

وهناك معلم شارك فى تكوين أحمد فارس الشدياق اللغوى والنحوى ، وهو شقيقه « أسـعد » الذى ترك مذهب آبائه الموارنة الى المذهب الانجيلى كما سبق القول ، وكان أسعد يكبر أخاه فارسا بسبع سنوات ، وهو من تلاميذ مدرسة عين ورقة أيضا ، وكان يجيد السريانية والعربية واللاتينية والايطالية والمنطق واللاهوت والطبيعيات والخطابة .

على أن فارس الشدياق لم يتكبر على طلب العلم فى أية مرحلة من عمره ، ولم يحجم عن طلب المعرفة من أى مصدر وفى أى سن ... ففى خلال اقامته بمصر من سنة ١٨٢٥ الى سنة ١٨٣٤ لم يجد حرجا فى أن يتتلمذ على الشاعر العالم المصرى الشيخ محمد شهاب الدين ، والأديب نصر الله الطرابلسى الحلبى . ولا شك أنه أفاد كثيرا من توجيهات الشيخ رفاعة الطهطاوى الذى أخذه معه محررا فى الوقائع المصرية .

فى مصر زادت حصيلة معارفه اللغوية والأدبية والشعرية ، فقرأ صحاح الجوهرى ، وديوان أبى الطيب المتنبى وغيرهما . وكانت سـنه حين جاء الى مصر عشرين عاما أو تزيد بضعة شهور ، فاستطاع فى التسع السنوات التى أقامها فيها أن يكون

تقسه فى اللغة والأدب ووفرة المحصول تكوينا سليما على أساس متين .

على أن هناك عنصرا آخر قد شارك فى ثقافة فارس الشدياق وسعة اطلاعه ، فهذه الرحلات والأسـفار التى قام بها ما بين القاهرة ومالطة وانجلترة وفرنسا وتركيا قد وسعت من نطاق خبراته وتجاربه ، وزادت من حصـيلة مشاهداته . ولم يكن الرجل يغمض عينيه حين يتنقل فى بلاد الله ، ولكنه كان يفتحهما فتح الذى يريد أن يصل الى بواطن الأمور ؛ فهو يسأل ويلاحظ ويدقق ويجرب كل شىء ويوازن بين هذا وذاك ، ويقرأ الصحف الانجليزية والفرنسية ، والمجلات العلمية والأدبية ، ويخرج من أسفاره وتنقلاته بين عواصم الدنيا الكبرى بكتابين عظيمين فى أدب الرحلات سنتحدث عنهما فى الفصـل الخاص بالشدياق الرحالة أخى الأسفار ، وجوّاب الأقطار ...

اسلام فارس الشدياق وحفاظه على العروبة

أشار كل الذين ترجموا لأحمد فارس الشدياق الى اعتناقه الاسلام فى تونس قبل سنة ١٨٥٧ ، أى بعد جولته التى قام بها فى فرنسا وانجلترة بضع سنوات بعد مغادرته مالطة سنة ١٨٤٨. ولم يختلف مترجمو سيرة الشدياق على حقيقة واقعة اسلامه ، فلم تكن فى يوم من الأيام محل خلاف . ولكن كلاما قيل حول الظروف المحيطة بهذه القضية ، فتناولها كاتبو سيرته من زوايا مختلفة .

ولقد كان المؤرخ جورجى زيدان من أقدم الذين ترجموا لفارس الشدياق فى تفصيل لا بأس به ، وذلك فى كتابه المعروف « تراجم مشاهير الشرق » . وحين بلغ به المطاف الى قضية اسلامه أشار اليها قائلا :

(ووجه اليه حضرة الباى — يعنى باى تونس — أحسن منصب لديه ، وهناك اعتنق الديانة الاسلامية على يد شيخ الاسلام ، وسمى أحمد ، فصار اسمه أحمد فارس الشدياق) .

وكذلك فعل مؤرخ الصحافة العربية الكونت فيليب طرازى فقد أشار الى هذه الواقعة قائلا : (... وبعد ذلك كلفه باى

تونس الى خدمة مملكته ، وأرسل له سفينة مخصوصة لتنقله الى بلاده ، فلبى الدعوة ، وهناك ترك مذهب البروتستنت وتبع دين الاسلام ، وصار يعرف بالشيخ أحمد فارس الشدياق) [1] .

وهكذا مرت مسألة اسلام فارس الشدياق هادئة عادية بدون تعليق عليها أو ذكر للأسباب والدوافع اليها ، أو الظروف المحيطة بها الى أن جاء الأديب المصرى المرحوم حسن السندوبى فترجم فى كتابه « أعيان البيان » لفارس الشدياق ترجمة طويلة أشار فيها الى واقعة اعتناقه الاسلام قائلا : (ثم وقعت بينه وبين شيخ الاسلام بالديار التونسية مجادلات فى العقائد الدينية أدت الى اعتناقه الدين الحنيف ودعا نفسه « أحمد فارس » ، وتكنى بأبى العباس ...)

ثم جاء الأستاذ عمر الدسوقى فنقل ما ذكره حسن السندوبى نقلا حرفيا دون اشارة اليه أو دون هدايتنا الى المصدر الذى نقل عنه صاحب هذه الرواية .

ولقد تناول اسلام فارس الشـــدياق بعض مترجميه من الزاوية التى ترضيهم أو تسد حاجة فى نفوسهم ، كما تناولها غير المغرضين بالحيدة التامة والقبول لها كواقعة مسلّمة ليس هناك مجال لدحضها أو الغميزة فيها .

ومن الذين لم يتركوا اسلام الشـــدياق بلا تعليق خاص

---

(١) تاريخ الصحافة العربية ـ لفيليب طرازى ـ ج ١ ـ ص ٩٧

الباحث اللبنانى بولس مسعد الذى ألف عن فارس الشدياق رسالة طبعت على نفقة الدكتور فيليب الشدياق وهو من أسرة المترجم له ، على أن مؤلف الرسالة نفسه من بيت « مسعد » وهو من أعقاب « رغـد » المتحدرين من صلب « الشدياق شاهين » جد الأسرة الشدياقية ... يقول الأستاذ بولس مسعد فى قضية اسلام فارس : (وكانت ذكرى وفاة شقيقه « أسعد » فى الظروف التى ألمعنا اليها فيما تقدم لا تزال راسخة فى ذهنه تؤلمـه وتقض مضجعه ، فسولت له نفسه اعتناق الاسـلام ، وسمى أحمد فارس) .

ووجه الغرابة فى هذا التعليل أن أسعد الشدياق قد مات بسبب تعـذيب الموارنة له لتغيير مذهبه الى البروتسـتانتية سنة ١٨٣٠ أى قبل اسلام أحمد فارس بما يقرب من ستة وعشرين عاما ... فأين كان فارس كل هـذه المدة ؟ أما كان أقوى فى الاحتجاج على التعذيب أن يغير دينه بعد وفاة أخيه مباشرة ؟ لا أن يصبر على ذلك ما يزيد على ربع قرن من الزمان ؟

أما الأب لويس شيخو اليسوعى صاحب الدراسات الأدبية والتاريخية واللغوية المشهورة فقد علل لاسلام أحمد فارس على طريقته الخاصة قائلا : (وفى مدة اقامته فى تونس سوّل اليه أعيانها بأن يعتنق الدين الاسلامى ، فجحد البروتستانتية طمعا بالمناصب ، كما جحد الكثلكة طمعا بالمال ...)

على أن محاولة التشكيك فى البواعث السليمة التى حملت المترجم له على اعتناق الاسلام لا تنفع مثقال ذرة فى تغيير حقيقة

اسلامه ، ومثل ذلك ما أثاره الأب لويس شيخو اليسوعي أيضا حول الساعة التي حضرت فيها الوفاة صاحبنا أحمد فارس ، وحول الرجال الذين أحاطوا به وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة في آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ... فالذى لا شك فيه من رواية المنصفين غير المغرضـــين ، بل من رواية الباحث يولس مسعد ـــ وهو من أسرة الشدياق ـــ أن الذى حضر ساعة وفاته نجيب هندية أحد محررى جريدة القاهرة ، وولده سليم فارس الذى استدعى من باريس الى الآستانة فجاءها على عجل ليشهد الساعات الأخيرة لوالده . وسليم الشدياق مسلم لا يشك أحد فى اسلامه حتى الأب لويس شيخو نفســـه ... فكيف يسمح سليم ـــ كما يزعم الأب شيخو نقلا عن أحد الأموات من بيت الشدياق ـــ أن يطلب أبوه وهو فى لحظات النزع أحـــد كهنة الأرمن الكاثوليك ويعترف لديه بخطاياه ، ويموت على الدين المسيحى ؟؟

وهـــل تغير مثل هذه الأقوال من حقيقة اســـلام فارس الشدياق شيئا ؟ وهل تؤثر فى الدور الكبير الذى لعبه المترجم له لخدمة العرب والاسلام ؟ اننا نترك هنا كلمة واحدة قالها المستشرق الانجليزى الأستاذ « چيب » يقرر فيها أن (فارس الشدياق كان أحد الأبطال العظام المدافعين عن الاسلام) .

ولم يكن البروفسور « چيب » هو وحده الوحيد بين علماء الاستشراق الذى أنصف فارس الشدياق فى صـــدق اسلامه ودفاعه عنه . فالأستاذ بروكلمان فى الفصل الذى عقده عنه فى

« دائرة المعارف الاسلامية » يقرر أنه فى صحيفة « الجوائب » « قد ناصر الاسـلام وعرف أهله بحال أوربا » . وان كان بروكلمان فى هذا الفصل قد وهم وهماً لا بد من تصحيحه هنا ، حين قال ان الشدياق اعتنق الاسلام فى استانبول [1] ، فما قال بهذا أحد مطلقا من المؤرخين ، ولعلها من زلات القلم عند هذا المستشرق الألمانى الكبير .

ان أحمد فارس الشدياق كان رجلا قد شـغل بال رجال الحكم ورجال السياسة ورجال الدين فى عصره ، ولهذا لم يكن من المعقول أن يمر حادث اعتناقه الاسلام هيناً ميسورا ، ولهذا ليس عجيبا أن يتهمه الأب لويس شيخو اليسوعى بالمراء ، وأن يزعم ــ بلا استناد الى مصدر ــ أنه (حصلت بينه وبين شيوخ الاسلام منافرات فنسبوه الى المراء فى دينه الحديث ...) واذا صح تاريخيا أن شيوخ الاسلام فى تركيا قد غمزوا الشدياق فى اسلامه فأنت تعلم الى أى حد كان جمود هؤلاء الشيوخ الذين لا يعجبهم جراءة فارس الشـدياق ولا نظراته التجديدية التى كانت تضيق بها صدور الجامدين ...

لقد أبت الطائفية الا أن تحارب فارس الشدياق حتى بعد أكثر من نصف قرن من وفاته حين كانوا يتحدثون فى لبنان عن تكريم فطاحل لبنان وأعلام النهضة فيه ، ولكن الأديب اللبنانى

---

(1) مثل هذا الوهم ما ذكره الأستاذ أنور الجندى فى كتابه « النثر العربى المعاصر فى مائة عام » من أن فارس الشدياق اعتنق الاسلام فى مدينة فاس ....

الكبير المرحوم مارون عبود رأى أن يتجرد من الطائفية ــ كعادته ــ فكتب عن فارس الشدياق كثيرا ، وأنصفه كثيرا ، ودافع عنه فى كتابه « مجددون وقدماء » ، ورد مغامز الذين غمزوه فى اسلامه ، وخصه بدراسة جادة ممتعة ، وترجمة دقيقة واعية فى كتابه المعنون « صقر لبنان » ...

ومن عجب أن مسألة وفاة فارس الشدياق على الاسلام كانت موضوعا للكلام والجدال ، حتى لقد رأينا فى مجلة الجمهور اللبنانية سنة ١٩٣٨ مقالا تحت عنوان : على أى دين مات فارس الشدياق ؟ والأديان كلها لله ... أما الذى لنا ــ نحن الفانين ــ فهو أن الشدياق كان علما من أعلام النهضة الأدبية اللغوية الفكرية لا فى لبنان فحسب بل فى العالم العربى كله ، وأن دينه الذى لقى الله عليه لا يغير من هذه الحقيقة شيئا .

هذا هو فارس الشدياق المسلم ، أما فارس الشدياق العربى المحافظ على عروبته فيكفيه ما أسداه للغة العربية من يد فى مثل كتبه : « سر الليال فى القلب والابدال » و « الجاسوس على القاموس » و « منتهى العجب فى خصائص لغة العرب » ــ الذى فقد فى حريق أصاب منزله ــ و « الساق على الساق فيما هو الفارياق » . ولقد بلغ من حفاظه أنه طاف أوربا بلباسه العربى ــ أو الشرقى ان شئت ــ ولم يبال أن يسخر القوم هناك منه ، ولم يفكر مرة أن يغير زيه . ففى مالطة أخذ هو وزوجته يطوفان الشوارع وهما فى زى أهل مصر ، وجعل المارون وأصحاب الدكاكين يتعجبون منهما .. وفى كامبريدج كان أهلها يسخرون

من طربوشه الأحمر ، حتى كان كثيرا ما يقبع فى غـــرفته ولا يخرج الا ليلا ... وكذلك كان فى أدنبرة باسكتلاندة ... انه يذكرنا هنا بالشيخ حمزة فتح الله الذى مثل مصر فى مؤتمرين للمستشرقين فى ڤينا سنة ١٨٨٦ ، واستوكهلم سنة ١٨٨٨ فى زيه الشرقى بالعمامة والجبة والقفطان ...

وعلى الرغم من صلة فارس الشدياق بسلطان تركيا ، ومن اقامته بين الأتراك فى الآستانة ما يزيد على العشرين عاما فانه كان لا يعجبه تجبر الأتراك ولا تكبرهم على العـــرب ، وقد لاحظ هذه الروح الاستعلائية من الترك فى أثناء قدومه الى مصر سنة ١٨٢٥ وزيارته للاسكندرية ، ولم ير مســـوغا لهذا الشعور التكبرى مع أن النبى عربى ، والقرآن عربى ، والأئمة والخلفاء والعلماء كلهم عرب . وندعه هنا يتحدث بنص عبارته قائلا : [١] (... فان للترك صولة على العرب وتجبرا ، حتى أن العربى لا يحل له أن ينظر الى وجه تركى ، كما لا يحل له أن ينظر الى حرم غيره ... واذا اتفق ــ فى نوادر الدهر ــ أن تركياً وعربياً تماشيا ، أخذ العربى بالسنة المفروضة ، وهى أن يمشى عن يسار التركى محتشما خاشعا ... فاذا عطس التركى قال له العربى : رحمك الله ! واذا تنحنح قال : حرسك الله ! واذا مخط قال : وقاك الله ! واذا عثر عثر الآخر معه اجلالا له

---

(١) الساق على الساق ص ١٥ من الكتاب الثانى .

وقال : نعشك الله ! لا نعشنا ! وقد سمعت أن الترك هنا عقدوا مجلس شورى استقر رأيهم فيه لدى المذاكرة على أن يتخذوا لهم مركبا وطنيا من ظهور العرب . فانهم جربوا سروج الخيل ، وبراذع الجمال وأكفها ، وأقتاب الابل وبواصرها وحصرها ، وسائر أنواع المحامل — ثم أخذ يعدد اثنين وثلاثين لفظا لغويا لأنواع المحامل — فوجدوها كلها لا تصلح لهم ... ولم أدر ما سبب تكبر هؤلاء الترك هنا على العرب ، مع أن النبى صلى الله عليه وسلم كان عربيا ، والقرآن أنزل باللسان العربى ، والأئمة والخلفاء الراشدين والعلماء كانوا كلهم عربا ، غير أنى أظن أن أكثر الترك يجهل ذلك ...)

ألست معى — بعد هذا — بأن فارس الشدياق لم يكن لبنانيا وحسب ، ولكنه كان عربيا متحمسا للعروبة لغة وفكرا وثقافة وتقاليد ، حتى لكأنها قد خالطت لحمه ودمه ...

ومن العجائب أن عروبة فارس الشدياق لم تكن محل خلاف أو موضع جدال بين مؤرخيه وكتاب سيرته ، أما مسألة عقيدته واعتقاده فقد أثارت من المجادلات ما ليس هنا موضع لذكره . على أن الأستاذ أنيس المقدسى قد جعله ماديا لا يهتم بما وراء الغيب ، ولا يؤمن الا بالنواميس الطبيعية ، فكان من السهل عليه أن يتقلب بين المذاهب والأديان (حتى اعتنق الاسلام) . ولعل عبارة الأستاذ أنيس المقدسى أولى بأن تذكر

فى هذا المقام : [١] (واذا تأملنا فى معتقدات الشدياق الخاصة ، وجدناه من الذين لا يؤمنون الا بما يدركونه بعقولهم أو يقع فى نطاق حسهم ، فلا يعيرون أهمية للغيبيات ، أو لما هو وراء النواميس الطبيعيـــة . وهو يسخر من الخرافات وأربابهـــا ، والكرامات أو العجــائب ومدعيها . وقد أصـــاب من قال : « فالشدياق يؤمن بالمادة ليس غير ، وان لم يصرح بذلك ، ولا يظهر لك ايمانه بها الا اذا تأملت مجموع ما كتب » . ولعل ذلك هو الذى سهل عليه أن ينقلب من دين الى دين طلبا للمنفعة الدنيوية ، وكيفما كان الأمر فانه قد كان من الدعاة الى التآخى والتساهل ، ينظر الى الدين فى وجهته الانسانية الأخلاقية ، ولا يهتم بما وراء ذلك) [٢] ألا أن صديقنا المقدسى قد لزّ بين الايمان بالمادة ، وبين المنفعة الدنيوية فى قرن ، وليس من الضرورى أن يكونا كذلك ، فقد يكون الرجل ماديا فى فلسفته فى الحياة ، ولكنه بعيـــد عن طلب المنافع الدنيوية ، فهذه ســـبيل وتلك سبيل ...

---

(١) الفنون الأدبية وأعلامها ـ لأنيس المقدسى ـ ص ١٤٧

(٢) فى موضع آخر من كتاب الفنون الأدبية وأعلامها يتهم الأستاذ المقدسى صاحبنا الشدياق بأنه كان رجلا ذا طمـوح ومطامع دنيوية ، وأنه كان صاحب مصلحة ... (فلأجل المصلحة يترك المارونية ويعتنق المذهب الانجيلى ، ثم لأجل المصلحة يترك المذهب الانجيلى ويعتنق الاسلام) ـ ص ١٤٤

ان انتقال رجل من دين الى دين لا ينقص أتباعه واحدا ، ولا يزيد الآخرين واحدا ، ولكن الذى يدخل فى الحساب هو ما يضيفه الانسان الى الدنيا من جديد ، ولا شك أن فارس الشدياق قد أضاف الى النهضة الأدبية الحديثة فى بلاد العرب والاسلام اضافات تجعل الرجـــل بحق رائدا عظيما من رواد القرن التاسع عشر .

الرحالة أخو الأسفار

لم يكن فارس الشدياق حلس بيته ، أو أليف داره ، أو ملازما لموطن واحـد . فهو منذ ريعان شـبابه أخو أسفار ، وصاحب تجوال [1] . وكأنما انتقلت اليـه مواريث الأسرة من ناحية ، ومواريث الرجل اللبنـانى من ناحية أخرى . فالأرض كلها عند اللبنانى وطن واحد ، وحسبك أن تعرف أنهم اقتحموا القارة الافريقية من جهاتها الأربع ، واقتحموا العالم الجديد : شماليه وجنوبيه ، فكان منهم هناك جالية نشيطة لها فى تاريخ الهجرة مقام معلوم .

وكذلك كان بيت الشدياق لا يقر على قرار فى لبنان نفسه ؛ فقد انتقلوا من بشرّى ، الى قضاء كسروان حيث ولد فارس الشدياق فى عشقوت ، الى الحدث فى بيروت ...

ويعبر لنا الشدياق نفسه عن ولوعه بالأسـفار منذ شبابه قائلا : (هذا وقد كنت فى عنفوان شبابى ، وجدة جلبابى ، وأزهار سـنى ، وازدهار ذهنى ، لهجا بالسـفر والاغتراب ،

---

(١) يحدثنا الشدياق فى « الساق على الساق » ص ٣٤ أنه كان وهو مقيم بمنزله يفكر فى صعود الجبال ، وخوض البحار (اذ كان أقصى مراده أن يرى منزلا غير منزله ، وناسا غير أهله ..)

والترحل عن الوطن والأصحاب ، الى بلد ينضر فيه غرسى ، وتطيب فيه نفسى ، وأقتبس فيه من مصابيح العلم قبسا ...) .

فالشدياق ينشد الرحلة ليزود منها نفسه بالعلم ، وليفيد منها ما تحققه الأسفار لصاحبها من فوائد . وهو لا يحب للرجل أن يكون قعددا لا يبارح وطنه ، ولا يفارق سكنه ، بل ينصح القادر على السفر قائلا له : (فأما أنت يا سيدى الغنى ، فالأولى لك أن تسافر من مدينتك العامرة ، حتى ترى بعينك ما لم تره فى بلدك ، وتسمع بأذنيك ما لم تسمعه ، وتخبر أحوال غير قومك وعاداتهم وأطوارهم ، وتدرى أخلاقهم ومذاهبهم وسياستهم ، ثم تقابل — بعد ذلك — بين الحسن عندهم ، وغير الحسن عندنا) .

واذا كان الشدياق قد تعلم من الكتب كما ذكرنا قبلا ، فانه كذلك اكتسب الخبرة والتجارب من الأسفار والرحلات ، فهى تحيى بالعمل ما مثله الكتاب بالنظر . ولا شىء مثل التجربة فى الحياة والمعاينة فيها بالعين وجس اليد والوقوع على الموضع ويصرح لنا المترجم له بأنه كثيرا ما سمع عن انجلترة الأخبار قبل أن يراها ، ويضع قدمه فيها ، فلما وفد اليها وأقام بها زمانا وجدها غير ما وصفها الناس ، فمن عادة الناس دائما أن يحرفوا الأخبار ويبالغوا فيها أو ينقصوا منها حتى تصبح شائهة لا تمثل حقيقة ولا توضح واقعا . وندع الشدياق يحدثنا عن هذه القضية فى « الساق على الساق » قائلا : (هذا الفارياق

ـ يعنى نفسه ـ حين نوى السفر من الجزيرة ـ يقصد مالطة ـ الى بلاد الانكليز كان بعض الناس يقول له : انك سائر الى بلاد لا تطلع عليها الشمس ! وبعضهم يقول : الى أرض لا ينبت فيها القمح والبقول ، ولا يوجـد فيها من المأكول الا اللحم والقلقاس !! وبعضهم يقول : انى أخاف عليك أن تفقد فيها رئتك لعدم الهواء ، وبعضهم يقول : أمعاءك لعدم الأكل ، وبعضهم صدرك أو عضوا آخر غيره .. فلما سار اليها وجد الشمس شمسا ، والهواء هواء ، والماء ماء ، والرجال رجالا ، والنساء نساء ، والديار مأهولة ، والمدن معمورة ، والأرض محروثة أريضة ، كثيرة الصوى والأعلام ، خضلة الغياض والربض والآجام ، ناضرة المروج ، زاهية الحقول ، غضة البقول ... فلو أنه سمع لأولئك الناس لفاته رؤية ذلك أجمع ...)

ولم يكن الشـدياق من أولئك الجـوابين الرحالين الذين يسافرون فقط ليقـال عنهم انهم سـافروا ، ويجوبون الأقطار ليقال عنهم انهم جابوا البـلاد ... وانمـا كان يجـوب ليتعلم وليكتسب من أسفاره كل يوم جديدا .. ، ويقول لنا عن أسفار المفاخرة : (فاما اذا قصدت السفر لمجرد التفاخر فقط بأن تقول مثلا فى مجلس زارك فيه أصحابك الكرماء ، وأقرانك العظماء : قد رأيت مدينة كذا ، وشاهدت شوارعها النظيفة الواسعة ، وديارها الرحيبة ، ومراكبها الحسنة ، وأسواقها البهيجة ، وخيلها المطهمة ، ونساءها الرائعة ، وعساكرها الجرارة ، وأكلت فيها فى اليوم الأول كذا ، وشربت فى اليوم الثانى كذا ، ثم ذهبنا

بعد ذلك الى بعض الملاهى ، ثم الى احدى الملهيات [1] ... فذلك كله يسمى فى العربية هذرا وهراء ، وفى المتعارف عند العامة فشارا وعلكا ... ! اذ لا فائدة فيه لأحد من الناس ...)

ولا تعود فوائد الخبرات عند الرحالة اليه وحده ، بل تعود الى قومه الذين لا بد أن يزودهم من رحلاته وتجاربه فيها بما يعين على تقـدمهم [2] . فكثيرا ما كان يأسى الشـدياق حين يرى أوربا متقدمة ويرى بلاده متأخرة متخلفة ، واذا ما سره هناك منظر ، أو راقه جانب من جوانب الحياة فان هذه المتعة لا تلبث أن تغص بتفكيره فى أمر قومه وما هم عليه من سـوء حال ... وما أصدقه وهو يحدثنا عن ذلك فى الصفحات الأولى من رحلتيه الى مالطة وأوربا قائلا : (ويعلم الله أنى مع كثرة ما شاهدت فى تلك البلاد من الغـرائب ، وأدركت فيها من الرغائب ، كنت أبدا منغص العيش مكدره ، كمن فقد وطره ، ولزمته معسرة ، لا يروقنى نضار ولا نضرة ، ولا نعمة ولا مسرة ، ولا طرب ولا لهو ، ولا حسـن ولا زهو ، لما أنى كنت دائم التفكّر فى خلو بلادنا عما عنـدهم من التمـدن ، والبراعة والتفنن) . فاذا ما تسـلى ساعة بذكر مكارم قومه وكرمهم وغيرتهم على العرض عاد ثانية الى التفكر (فى المصالح المدنية ،

---

(١) حذفنا هنا سطورا من مشاهدات وتجارب غير لائقة .

(٢) ينصح الشدياق بأن المرء اذا ارتحل عن وطنه فليجتهد اذا عاد اليه أن يؤلف رحلة يشـهرها بين أهل بلاده لينتفعوا بها من دون قصـد التكسب ببيعها ... انظر الساق ص ٢٧٩

والأسباب المعاشية ، وانتشار المعارف العمومية ، والى اتقان الصنائع ، وتعميم الفوائد والمنافع) عاودته الأشجان ، وارتدت اليه الأحزان لخلو بلاده منها ، وأدركته الحسرة على ما فات أوطانه من أسباب تقدمها ...

ولقد تغلغل حب الرحلات وأدب كتابتها ووصفها فى نفس فارس الشدياق حتى لقد كان كتابه « الساق على الساق » محتويا على كثير من مشاهداته وخطراته وتجاربه فى الأسفار ، وهذا بالاضافة الى كتابيه الآخرين الصريحين فى أدب الرحلات ، وهما : الواسطة فى معرفة أحوال مالطة ، وكشف المخبأ عن فنون أوربا . وبلغ من حرصه على تأليف رحلته الى أوربا أنه كتبها وهو فى زحام لندن وفى غمار دخان مصانعها ، بعيدا عن ريف انجلترة وهدوئه ومناظره الجميلة . وما ألطفه وهو يروى لنا ذلك قائلا فى عبارته الفكهة : (.. وما أظن أحدا من سكانها يمكنه أن يعمل فكره فى شيء الا فيما هو بين يديه من الشغل . وفى هذا المورد الوخيم قدر الله لى أن أؤلف هذا الكتاب ، لا فى مروج ايطاليا النضيرة ، ولا فى رياض الشام الأنيقة ... فأخال أن بين كل كلمتين منه دخانا متصاعدا ، وظلاما متكاثفا ..)

ولا تفوت فارس الشدياق فى رحلاته مقارنات الفاحص المدقق ، ولا موازنات الباحث المحقق ، فهو يقارن — مثلا — بين دور القوم فى مالطة ودورنا فى الشام ومصر قائلا : (ومن استأجر دارا فلا بد أن يدخلها مبيضة ، مصبوغة المنجور . وصبغ الخشب عادة حميدة ، فانه أبهى للنظر ، وأبقى للخشب ،

وقد تظهر به الدار بهية فى الخارج ، وربما كان داخلها بخلاف ذلك . وهى عكس العادة عندنا ، فان خارج ديار مصر والشام مظنة للهمجية ، مع أن داخلها منقوش مزخرف ...) ولا يفوته وهو الذكى المجرب أن يعلل لهذه الظاهرة فى ديار مصر والشام بأن الحكام فى السابق كانت تمتد أيديهم الى أخذ أموال الناس بطريق المصادرة ، ومن هذا حرص هؤلاء على أن لا يظهر الغنى على أبنيتهم أو ملابسهم ... وهو يقارن بين ثياب النساء فى دمشق والقاهــرة ، وهو يقــارن بين المرأة الانجليزية والمرأة الفرنسية ؛ فيغلب على الأولى الكبر والأنفة والصلف ، والظاهر من نساء الفرنسيس اللين والبشاشة . والمرأة الفرنسية تغرّم زوجها على كسوتها فقط ما ينفقــه المتزوج من الانكليز على جميع أهله ! ويمضى الشدياق فى مقارناته حتى بين العاصمتين : لندن وباريس ، فلا يفوته أن يدرك حتى الفــرق بين ايقاد مصابيح النور فى طرقات المدينتين ! فكيفية تنوير الطرق فى لندرة هى أن يرتقى الرجل فى سلّم الى الفانوس ، وفى باريس يضع الرجل الشعلة فى عود طويل ثم يدنيها وهو واقف على الأرض من فتحة الفانوس دون حاجة الى أن يصعد سلما ...

وهكذا لا تفوت الشدياق ملاحظة واحدة على أشياء عابرة قد يراها غيره أمورا صغيرة . ويستعين على مقارناته فى أدب الرحلات بقوة استحضار عجيبة للأشباه والنظائر والأضداد ؛ فانه لما قصد مصر فى أول عهده بها فى حكم محمد على لقى من علمائها وأدبائها ترحيبا به ، وبشاشة له ، وعطفا عليه ، فأكرمه

رفاعة الطهطاوى ، وساعده الشاعر الشيخ محمد شهاب الدين ، ونصر الله الطرابلسى ، فقرأ عليهما بعض كتب الأدب واللغة والشعر ... ولكنه لما قصد أكسفورد ــ فى خلال رحلته الطويلة الى انجلترة وفرنسا ــ كان يحمل معه كتاب توصية الى أحد علمائها ومشهورى رجالها ، ولكنه وجد الوصول اليه متعذرا (فان العلماء فى هذه المدينة ليسوا كعلماء مصر فى رقة الجانب وبشاشة اللقاء ، بل هم أشد فظاظة من العامة . وعندهم أن الغريب لا يأتى الى بلادهم الا والشلاّق [1] على عاتقه ..) .

ولقد خرج فارس الشدياق من موازناته بين انجلترة وفرنسة فى منتصف القرن التاسع عشر بتفضيل الثانية على الأولى من حيث استتباب الأمن والنظام وندرة حوادث القتل والنظافة ونشاط رجال الشرطة وسرعة استجابتهم ، وكثرة الدكاكين التى لا يخلو منها فى باريس موضع ، وتنظيم البغاء والاشراف عليه وخاصة من الناحية الصحية ، وسهولة الاستعارات الخارجية للكتب من المكتبات الملكية على حين يضن الانجليز بها ، وكثرة المدارس ورخص مصروفاتها (حتى ان الانكليز يبعثون أولادهم الى باريس ليتعلموا فيها ما يعسر عليهم تحصيله فى بلادهم) .

ويظهر أن الشدياق لم ينظر الى انجلترة فى رحلته اليها بعين الرضا ، فأبدى كثيرا من مساوىء الانجليز ، كما أن عين رضاه عن فرنسا كانت كليلة عن عيوب الفرنسيين ... ولقد أقام

---

(١) الشلاق : شبه مخلاة يحملها الفقراء والمتسولون .

بينهم زمانا فعاف طعامهم الذى لا يعرفون منه الا المسلوق ، وكره جوهم الذى لا تسفر فيه الشمس الا بعض الحين ، ولاحظ كثيرا من مساوىء خلقهم كالنفاق وتصديق الخرافات وغش الأطعمة . فمن نفاقهم أن أكثرهم لا يؤدى الفروض الدينية الا رئاء الناس ... فالطبيب يتظاهر بحضور الصلوات وخاصة صلاة الأحد ارضاء للناس حتى يقبلوا عليه فيروج أمره ... ومن اعتقادهم بالخرافات أنهم يتشاءمون من تعارض سكينتين وقت الغداء ، ويتطيرون من المشى تحت سلم قائم ، ويتفاءلون بالقاء نعلين باليتين خلف من خرج من المنزل لمصلحة يروم قضاءها ... ويتفاءلون لو قلب أحد وعاء الملح على المائدة ، مع أنه عند العرب كناية عن الغدر والخيانة . ومن غشوشهم فى الأطعمة أنك اذا طلبت فنجانا من القهوة فى المقاهى ، التى يجتمع فيها الأراذل غالبا ، خلطوا لك القهوة بالحليب والسكر فى مكان مستور عن العين ، وقدموه لك هكذا فلا تدرى ما الذى وضعوه فيه ! وأدهى من هذا أن خبزهم مخلوط بالبطاطس والشب ، ولحمهم من حيوان أصابه الداء فذبح ، ونقانقهم — سجقهم — من لحم فاسد منتن تحشى به الحوايا والمصارين ...

واذا كانت مظاهر التقدم العلمى والحضارى عند الغربيين تذكّر الشدياق دائما بتخلف بلاده فى هذه الميادين ، فان ظواهر الطبيعة المتجهمة العبوس فى الغرب — وخاصة فى انجلترة — كانت تذكره بصفاء الجو فى بلاده . ولقد جاء الى مصر أول عهده بها وهو فى العشرين من عمره فحمد أهلها وجوها وشمسها

ونيلها ، فلما غادرها الى مالطة سنة ١٨٣٤ بادأته بغيومها ورياحها وشمسها المحتجبة فتذكر مصر وشمسها الضاحكة قائلا : (وكثيرا ما تتوارى الشمس فى فصل الشتاء فلا تطل فيه ولا من شباك ! فأين هذا من شتاء مصر حين يترحب بالشمس طالعة وتشيع غاربة ، وفى الصيف يطفو نيلها فيرطب الأرض وينتظم به شمل الأحباب ، وعقود المسرات ..) ، على أن الشدياق — مع طول غربته وبعد نواه من وطنه — لم يكن ممن يطيلون الحنين والشوق اليه فى آثارهم ، ولعل النص الذى سقناه قبيل هذا هو الوحيد الذى يعبر عن تشوقه لمصر . والحق أن اقامته بمصر كانت تحمل فى نفسه أجمل الذكريات وأسعدها ، فقد كان فيها خلاصه من مكابدة العيش والحاح التعصب فى لبنان ، وكان فيها الرخاء والهدوء اللذان لم ينعم بهما فى الجبل ، وكان فيها صحبة العلماء الذين أخذ عنهم وأحبهم وأحبوه ، وكان فيها بيت الصولى الذين صاهرهم ولقى عندهم حبه الأول ... أما لبنان فلم يكن له فيه الا ذكريات مؤلمة عن أخيه « أسعد » ضحية الطائفية الكريهة ، وذكريات مريرة عن الفتنة بين النصارى والدروز سنة ١٨٢١ حيث أبلى أبوه بلاء حسنا فى قتال الزعيم الدرزى الشيخ حمود النكدى ...

ولقد حمل الشدياق لنيل مصر أعذب الذكريات ، ولم يشرب من مائه فحسب خلال اقامته بمصر ، ولكنه ركبه مسافرا من القاهرة الى الاسكندرية فى طريقه الى مالطة ، ووصف لنا سفرته هذه فى القنج من بولاق بأنها من أعظم اللذات التى

ينشرح لها الصدر : (فان النيل لا يكون الا ساجيا ، ورئيس القنجة يقف قبـــالة كل قرية ليتزودوا منهـــا الدجاج والفاكهة الطريئة واللبن والبيض . وناهيك بماء النيل عذوبة ومصحة . فالراكب فى احدى هذه القنج لا يزال طول نهاره آكلا مسرورا قرير العين بما يراه من نضرة الريف وخصب القرى ، حتى يود أن تطول مدة سفره فيه ، وان كان فى قضاء أمر مهم ..) .

ولم يسكت الشدياق خلال رحلاته فى الغـــرب على مزية رآها فيه الا أشاد بها واقترحها على بلاده وأوطانه لتأخذها . فقد شاهد المسارح فى لندن ، ورأى ازدحام الناس عليها الى درجة تغلو معها أثمان المقاعد فلا يقوى على دخولها الا أهل الاستطاعة والمقدرة [1] المادية : وشاهد الروايات وهى تمثل على المسرح فتعيد الوقائع والحوادث الماضية كأنها مشاهدة بالعيان ، ورأى آلات المسرح وأدواته ومناظره مما يحير الناظر ــ على حد تعبيره ــ وشاهد فن « الماكياج » مما يجعل الشيخ فتى ، والفتى شيخا ... وتمنى لو كان العرب قد نقلوا عن اليونان شيئا من المسرحيات كما نقلوا عنهم الفلسفة ، أو لو أنهم ألفوا فيها . واستظهر أن اجتماع العرب فى سوق عكاظ لتناشد الأشعار والقائها بطريقة الحوك والحركات والاشارات كان يشبه مبـــدأ الملاهى عند اليونان التى توسعوا فيها حتى صارت فنا قائما ، فلو أن العرب توسعوا فى القاء الأشعار بالأسواق الأدبية لتطور عندهم هذا الى فن هو التمثيل أو قريب منه .

---

(١) كشف المخبا عن فنون أوربا ــ ص ٣٠٥

لقاءات ومقابلات

لقد قضى فارس الشدياق عشرين عاما من عمره فى لبنان منذ ولادته سنة ١٨٠٥ حتى قدومه الى مصر سنة ١٨٢٥ . لم يقابل فيها واحدا من الشخصيات الكبيرة الا ما كان من اتصاله بالمؤلف المؤرخ الأمير حيدر الشهابى الذى اشتغل عنده بنسخ الدفاتر ، والا ما كان من لقائه ببعض أمراء الجبل وأساتذته من رجال الدين فى مدرسة عين ورقة . فلما جاء الى مصر بدعوة من الأمريكان المرسلين أتاحت له الظروف أن يلتقى فيها ببعض الشخصيات اللامعة فى ذلك الحين ، كالشيخ رفاعة الطهطاوى ، والشاعر محمد شهاب الدين وبعض علماء الأزهر وزملائه المحررين والمترجمين فى « الوقائع المصرية » .

ومن هنا بدأت تظهر حركة اتصالات الشدياق بالرجال والعلماء . ولكن رحلته الى مالطة سنة ١٨٣٤ واقامته فيها أربعة عشر عاما ، واكبابه فيها على تصحيح الكتب والمطبوعات العربية واشتغاله بالتدريس هناك قد جعله فى شبه عزلة عن العالم الخارجى .

ولم تتفتح أمام الشدياق سبل اللقاء بالشخصيات الكبيرة الا بعد مغادرته مالطة سنة ١٨٤٨ فى طريقه الى انجلترة لمعاونة

الدكتور لى فى ترجمة الكتاب المقدس الى العربية ، ففى هذه الجولة الطويلة التى نيفت على تسعة أعوام أتيح لفارس الشدياق أن يلتقى برجال ما كان يخطر على باله قط أن يلتقى بهم ما بين ملوك وأمراء ومستشرقين وعلماء وسياسيين وشعراء عالميين .

فممن قابلهم الشدياق الباى أحمد أمير تونس الذى كان ممدوح الشدياق بسبب ما وزعه من الأموال على فقراء مرسيلية وباريس أثناء زيارته لهما . وقد أعجب باى تونس بالقصيدة التى تلطف الشدياق فى ايصالها اليه ، فاستقدمه مدعوا الى بلده على ظهر سفينة حربية ، مبالغة فى تكريمه ... وقد دهش صاحبنا لهذا الكرم الذى ما كان يتوقعه فى حياته ، واستيقن أن الله جعل له بعد العسر يسرا ... ولم يكن يصدق أن الشعر العربى قد بقى له مثل هذا الرواج ! ويقول هو عن ذلك : (... فلما سمع ذلك – يعنى دعوته الى لقاء باى تونس – استبشر بالفرج من فرحته ، وقال : لعمرى ما كنت أحسب أن الدهر ترك للشعر سوقا ينفق فيه . ولكن اذا أراد الله بعبد خيراً لم يعقه عنه الشعر ولا غيره ..) ولما بلغ تونس (حظى بتقبيل يد المولى المعظم ، ونال منه الصلات الوافرة) كما يقول عن نفسه . وهناك التقى بجماعة من أهل العلم والفضل والأدب ، فتعرف اليهم ، وتأكد الود بينه وبينهم ، وكانت المآدب تقام له ، والتحف والألطاف تهدى اليه .

ولعل من مناسبات القول أن نذكر أن قصيدة الشدياق فى مدح باى تونس كانت على وزن لامية كعب بن زهير

ورويها ، وهى القصيدة المشهورة فى الأدب العربى باسم « بانت سعاد » . وقد سمى الشدياق مدحته باسم « زارت سعاد » تيمنا باللقاء ، وتحاشيا لذكر البين والفراق !

ولقد لقى الشدياق شخصية عربية اسلامية أخرى لها وزنها فى الجهاد والكفاح ضد الاستعمار ، ونعنى بذلك الأمير المجاهد عبد القادر الجزائرى ، وكان فارسنا على مألوف عهده فى الشعر العربى يهدى القصائد والمدائح الى كبار من يقابلهم من الرجال ، فنظم قصيدة للأمير عبد القادر وأهداها اليه وتشرف بمجلسه [1] .

وكان لقاء فارس الشدياق للأمير عبد القادر الجزائرى فى باريس بعد أن استسلم هذا لأعدائه الفرنسيين سنة ١٨٤٧ بعد كفاح مشرف مرير ، وبعد أن سرح الأمير المجاهد من منفاه بأمر من نابليون الثالث ملك فرنسا . ونستنتج أن هذا اللقاء كان فى احدى سنتى ١٨٥٢ ، ١٨٥٣ لأن الأمير غادر باريس بعد ذلك الى دمشق سنة ١٨٥٤ حيث اتخذها مستقرا له .

ولم تخرج قصيدة الشدياق فى مدح الأمير عبد القادر الجزائرى عن نطاق قصيدته فى مدح باى تونس ، بل عن نطاق الشعر التقليدى كله ، فقد افتتحها بالغزل أيضا — مع أنه عاب على الشعراء مثل هذه المسالك [2] ، ولعله كان مشدودا الى هذا الجمود مراعاة للذوق الذى كان سائدا وكان يعجب السامعين وخاصة من كبار الممدوحين ، فلم يشأ أن يغيره ...

---

(١) الساق على الساق — ص ٣٨٨ من الكتاب الثانى .

(٢) الساق على الساق — ص ٥٦

وبعد أن أطال الشدياق فى نسيبه وغزله فى مدحة الأمير الجزائرى دخل على المدح بقوله :

شـــيئان لست أطيق صبرا عنهما
ذكرى هواك ومدح عبد القادر
هو ذلك الشهم الذى شـــهدت له
كل البرية بالفعـــال الفـــاخر

وكانت اقامة الشدياق فى العاصمة الفرنسية ســـببا فى أن يهيأ له اللقاء مع شخصيات فرنسية كبيرة ، فممن لقيهم الشاعر الفرنسى لامارتين ، وان كان لقاؤه اياه فى أثناء مروره بباريس مجتازا بها فى طريقه الى لندن . وقد أشـــار هو الى ذلك فى « الساق » قائلا : (فسارت بهما ـــ أى هو وزوجه ـــ الى جينوى ، ثم الى مرسيلية ، ثم سافرا الى باريس ؛ وفيها اجتمع بمسيو لامارتين الشاعر المشهور فى اللغة الفرنساوية) . ولا ندرى شيئا أكثر من هذا عن ظروف هذا اللقاء ودواعيه ، ومن الذى هيأ له ومهـــد أسبابه ؟ ومن الذى كان واسطة التعـــارف بين هذين الرجلين ، ولم يقل هو لنا شـــيئا عن ذلك ، فى حين أنه يذكر لنا بعض بواعث اللقاء بينه وبين جماعة من المستشرقين الذين لقيهم فى فرنسا .

مع المستشرقين

والحق أن لقاءات فارس الشدياق مع المستشرقين لم تكن مما يرتاح اليها ويأنس بها ، ولعله لقى منهم ومن معاملتهم له ما جعله يسىء الظن فيهم ، ويقطع الأمل منهم . فقد عرفهم عن قرب ، وكشف عن مواطن ضعفهم فى اللغة وفهمهم لها ، ولم يبال أن يرميهم بالجهل ، فنراه يقول فى موضع من كتابه « الساق » : (جرت العادة فى بلاد الافرنج بأن مدرسى اللغات فى مدارسهم الجامعة لا يكونون الا منهم ، وان كانوا جاهلين !!) .

وقد حمل الشدياق على جهل هؤلاء المستشرقين مع ادعائهم الكاذب وغرورهم الباطل ، ومحاولة حشد كتبهم بالمعارف المبعثرة حتى يوهموا الناس أنهم علماء . وندعه هنا يصور لنا ذلك فى كتابه الممتع « كشف المخبا عن فنون أوربا » حيث يقول : (ومن طبع الانكليز عموما التهافت على الشهرة والنباهة بين أقرانهم بأى سبب كان ، ولا سيما فى أسباب المعارف والعلوم ، فان من يعرف منهم مثـــلا بعض كلمات من اللغـــة العربية ومثلها من الفارسية أو التركية ، فاذا ألف كتابا بلغته أدرج فيه كل شىء يعرفه عن غيرها ليوهم الناس أنه لغوى . وما عليه أن يكتب تلك الألفاظ على حقها أو يخطىء فيها . وفى عنوان كتابه تعلق

عليه جلاجل من الألقاب الطنانة ، فيكتب له : أنه من أعضاء جمعية كذا ، وملخص كتاب كذا ، ومحرر نبذة كذا ، وخطيب مثابة كذا : وهلم جرا ... ولو عصرت كتابه كله لما بللت منه صدى مسألة . وذلك لأنهم لا يأخذون اللغات عن أهلها ، فمهما يخطر ببالهم فى تأويلها يقذفوا به جزافا من دون تحرج أن ينسبوا اليها ما ليس منها ...)

ولا يكتفى الشدياق بهذه الحملة العامة ، بل يلجأ الى التخصيص بذكر أسماء بعض الجهلة من المستشرقين كأنه يريد أن يشهر بهم ، فيقول : (انظر الى ريشردصون) الذى ألف كتاب لغة يشتمل على لغته وعلى لغتى العرب والفرس ، فأقسم بالله أنه لم يكن يدرى من لغتنا نصف ما أدريه أنا من لغته ، لا بل سولت له نفسه أيضا أن ترجم العربى فخلط فيه ولفق ما شاء)

ولم يشأ الشدياق أن يوجه الاتهام بلا دليل ، وأن يلقى التهمة بدون بينة ، فذكر نماذج من تحريفات هذا المستشرق الدعى كتحريفه من كتاب « ألف ليلة وليلة » عبارة (حتى تنم جلوتها) بقوله (حتى تنم جلدتها) ــ والعروس لا تجلد ، بل تجلى فى يوم زفافها !! وحتى غير كلمة « جميع من حضر » ، بقوله : جميع من حظر (بالظاء) ! وكأنه فخم الضاد الى الظاء تعالما !!

ولم يكن الشدياق فى حملته على المستشرقين متعصبا ولا متجنيا ، فقد راعه نماذج من جهلهم وسوء فهمهم للغة ودعواهم

العريضة ، وساق هذه النماذج فى مواطن مختلفة من كتبه ، الا أنه أنصف المحققين منهم من أمثال المستشرق سال (صال كما يكتبه الشدياق) الذى ترجم القرآن الكريم ، ومستر ادوار وليم لاين الذى ترجم حكايات ألف ليلة وليلة ، وألف كتابه المشهور عن عادات المصريين المحدثين ، ومستر برستون الذى ترجم خمسا وعشرين مقامة من مقامات الحريرى . ويعزو المفكر الفرنسى ڤولتير قدرة المستشرق سال فى اللغة العربية الى أنه أقام بين ظهرانى العرب سنين عديدة وأخذ عنهم علم العربية حتى تهيأت له ترجمة القرآن بهذه المقدرة [1] ولكن الشدياق يشك فى اقامة سال بين العرب زمانا طويلا لأنه لم يشر الى ذلك فى مقدمة ترجمته للقرآن الكريم .

ولقد كان الشدياق شديد التهكم والسخرية بالمستشرقين الجهلة ، ومن أمثلة عباراته الساخرة قوله عنهم : (فان أحدهم لا يبالى أن يؤدى معنى الترجمة بأى أسلوب خطر له ، فلو قرأ سباً فى كلامنا مثلا ، بأن قال بعض السبابين لآخر : يحرق دينه ، ترجم بأن دينه ساطع متلهب من حرارة العبادة والغيرة ، بحيث انه يحرق جميع ما عداه من الأديان ، أى يغلب عليها ، فهو الدين الحقيقى القـــاهر ، كما ورد أن الله نار آكلة !!) وسب

---

(١) ليس فى ترجمة جورج سال بكتاب « المستشرقون » للباحث المحقق الأستاذ نجيب العقيقى ما يدل على أن هذا المستشرق قد أقام بين العرب كما ذكر ڤولتير فى قاموسه الفلسفى — انظر ص ٤٧١ من الطبعة الثالثة لهـذا الكتاب القيم .

الدين فى لبنان شيء معروف ، ولعلك تفطن أيها القارىء الكريم الى ما وراء هذه العبارة كلها ...

وكان المستشرق التبشيرى الدكتور « لى » صديقا ورفيقا لفارس الشدياق ، بل كان رئيسه فى ترجمة الكتاب المقدس ، وكان مدرسا للغة العربية فى جامعة كمبريدج ، ومع ذلك لم يتحرج فارس الشـــدياق من الكشف عن دعواه ومبلغ علمه بالعربية التى كان مدرسا لها بجامعة انجليزية كبيرة ... وقد ذكره فى رحلته الى أوربا غير مرة وقالعنه : (وقد جرى لى معه وقت الترجمة عدة مناقشات ومجادلات لا بأس بايرادها هنا ، وان طال بها الكلام ، فانها عنوان على معرفة القوم لغة الشرقيين وخصوصا العربية ...)

ويذكر لنا الشدياق شيئا كثيرا من مضحكات المستشرق الانجليزى الدكتور « لى » فى ترجمته للكتاب المقدس ، فقد تعاون الرجلان فى هذا العمل وانكشفت للشدياق منه عورات ... فمن ذلك أنه كان لا يعجبـــه قول الشـــدياق فى الترجمة المقدسة : « ضرب لهم مثلا » فيغير الفعل « ضرب » الى «قال» ، فتصبح العبارة هكذا : قال لهم مثلا (لأنه كان يترجم فى عقله لفظة ضرب الى لغته ، فلا يجد له معنى سوى ايصال الألم ...) وكان لا يعجبه قول الشدياق فى ترجمة التوراة « ماء البحر » ويغيرها الى « مياه البحر » لا لسبب لغوى معقول (الا أن

تبديله هوس !) [1] . ولما استعمل الشدياق كلمة « المعجزات » فى ترجمة الكتاب المقدس رفضها الدكتور لى وزعم (أنها ليست من كلام النصارى حتى وجدناها فى نسخة رومية) .

ومن مضحكات الدكتور لى المستشرق فى ترجمة الكتاب المقدس أنه كان يتجنب كل جملة تنتهى بالواو والنون ، أو بالياء والنون ، ويقول انها مضاهية لكلام القرآن فيبدلها (حتى انه رأى هذه الجملة وهى : وأنتم على ذلك شهود ، فقال ان هذا الوقف يشبه وقف القرآن ، فمن ثم بدلها بقوله : وأنتم شهود على هذا) ...

وكان سوء رأى الشدياق فى المستشرقين يحملهم على تجنبهم له ، وخاصة رجال الاستشراق الفرنسيين الذين لم يطأ لأكثرهم عتبة (لأنهم نفسوا عليه بمائهم وبضيحهم ، وبودهم وكلامهم ، حتى انهم أبوا أن يطبعوا له قصديته التى مدح بها باريس ، بعد أن وعدوا بذلك ، وما كان خلفهم الا حسدا ولؤما ...) [2]

والحق أن هذا الموقف الذى اتخذه مستشرقو فرنسا أزاء فارس الشدياق كان هو المسئول عن حدوثه ، فقد كانت صراحته فى مجاهرتهم بتجهيلهم وتسفيه آرائهم وتخبطهم فى التفسيرات اللغوية مما جعلهم يقفون منه هذا الموقف ، ولو أنه صانعهم بعض الشىء ، أو داراهم بعض المداراة لوجد منهم بشاشة وترحيبا ...

---

(١) كشف المخبأ عن فنون أوربا — ص ١٢٣ .

(١) الساق على الساق — الكتاب الثانى ، ص ٣٨٨

على أن ذلك كله لم يمنع أن يلتقى الشدياق ببعضهم ، فقد تعرف بالمستشرق « دى لاجرانج » وأسماه الكونت ديكرانج ، وكان فى ذلك الحين رئيسا للتراجمة فى العاصمة الفرنسية ، ولا شك أن الشدياق أعجب به ، لأنه كان متضلعا فى العربية ملماً بمفرداتها .

وقد سبق معرفته بدى لاجرانج تعرفه الى المستشرق المشهور « كاترمير » الذى اشتهر بتحقيق كتاب « السلوك لمعرفة دول المملوك » للمقريزى وترجمته ، وترجمته بعض مصنفات الميدانى صاحب مجمـــع الأمثال ، ونشر مقـــدمة ابن خلدون ، وتقويم البلدان لأبى الفداء وغيرها . وقد عرّفه كاترمير بمستشرق فرنسى آخر واسع الشهرة هو « كوسان دى برسيفال » الذى تخرج بالعربية فى معهد فرنسا وكان أستاذا لها فيه ، ومن آثاره اعادته ترجمة جزء من ألف ليلة وليلة ، ومقامات الحريرى ، وشرح معلقة امرىء القيس للزوزنى .

ولم يكن لقاء الشدياق مع كاترمير ، وكوسان دى برسيفال الا تمهيـــدا لالتقائه بالمستشرق جـــوزيف رينو الذى كان من تلاميذ المستشرق الكبير سلفستر دى ساسى ومن الناهجين منهجه الناسجين على منواله ، وكان حين لقيه الشدياق مدرسا للغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية .

ويؤكد لنا فارس الشدياق فى كتابه « الساق على الساق » أن معرفته بهؤلاء المستشرقين كانت (كأداة التعريف فى قولك : اذهب الى السوق واشتر اللحم !!)

ولعل حملات الشدياق على المستشرقين الانجليز أول الأمر هى التى سبقته قبل ذهابه الى فرنسا ، فنفرت القوم منه وجعلتهم يتحامون لقاءه حتى لا يكشفوا أمامه عن جهلهم وفضائحهم .

ولم تعجب الشدياق طريقة المستشرقين فى تدريسهم العربية بالجامعات وفهمهم المتعسف المقلوب لنصوصها ، وذلك راجع الى انعدام بصرهم بأسرار اللغة ومعانى مفرداتها وذوقها ، لأنهم غرباء عليها مهما قرءوها فى الكتب . وقد ضرب لنا الشدياق مثلا فاضحا ساخرا لمستشرق انجليزى كان أستاذا للعربية فى جامعة أكسفورد ، فلما أخذ الأستاذ يشرح لطلبته من الانجليز الشادين فى تعلم اللسان العربى معنى بيت أبى تمام :

همــة تنطح النجــوم ، وجــد
آلف للحضيض فهــو حضــيض

جعل يتقهقر فى الشرح ، ويستطرد ، ويزحم الطلاب بالمعارف المشتتة ، ويقلب المعنى المراد وينحيه عن حقيقته لأنه لا يدرك سر الألفاظ ، ويقحم فى الشرح معلومات تاريخيــة وجغرافية ولغوية فارغة لا تتصل بمعنى البيت من قريب أو بعيد .. وأخيرا بعد جهد جهيد أراد أن يكشف عن معنى البيت فقال : (وفحوى البيت أنه ــ أى الممدوح ــ ذو عناية بالأرض ، أى بحرثها واحيائها وانشاء المدن فيها ، وتسوية الأحكام بين أهلها ، لأن الأرض كثيرا ما تذكر ويراد بها سكانها ، وذلك أيضا مستفيض

فى التــوراة ، حتى ان هــذا المدوح صار أرضــا وخصبا لقاصده ..) !

وهكذا انتهى المستشرق الانجليزى الأوكسفوردى العلامة الى هذا التفسير الذى كان يصادف الشــدياق منه كثيرا مع المستشرق الدكتور لى فى أثناء اشتغالهما معا بترجمة الكتاب المقدس قبل أن يشرح الله صدره للاسلام .

الكاتب واسلوبه

يذكرنا أسلوب فارس الشدياق المرسل بأسلوب البلغاء المترسلين ، فهو يعمد فى أكثر ما كتبه الى المعنى الذى يريده فى وضوح ودقة وفهم تام لدلالات الألفاظ على المعانى ، وفى تجنب للصناعات اللفظية التى كانت شائعة فى عصره .

والشدياق من كتاب العرب القلائل الذين يعرفون قيمة الألفاظ فى مواضعها ، وينزلونها منازلها ، فلا يبهرج ، ولا يلف ، ولا يغمض ، ولا يبهم ، ولكنه يؤدى لك المعنى فى اشراق ، ووضوح ، واستقامة ودقة . وهو مؤمن بأن الالتجاء الى الصناعات والمحسنات وزخارف القول هو اضاعة للمعانى ، فوق أنها تشغل القارىء بظاهر اللفظ عن باطن المعنى . والمعانى الجياد تستغنى عن الطلاء والزخرف كما تستغنى الحسناء عن الحلى . فهو حين يكتب لا يستحضر بباله غير المعنى الذى يريده ، والموضوع الذى يقصد الكلام فيه . ولا يكلف نفسه مثلا أن يستحضر أساليب من كتبوا قبله من علماء اللغة والبلاغة الماضين ، لأنهم لم يجربوا تجربته ، ولأن لكل كاتب شعوره الخاص ، واحساسه بالموضوع الذى يكتبه ، فلا يغنيه أن يستعير من أديب عبارة ، أو يقترض من كاتب آخر أسلوبا .

انه كاتب ظهر فى عصر كان للصنعة البيانية فيه مكانها ، وكانت مجاراة أساليب الأقدمين شيئا مقدسا ، ولكنه كان من أوائل الشجعان الأجرياء الذين حرروا الكتابة من قيودها ومن بدعة التقليد والمحاكاة فيها فى زمن كانت الامامة البيانية فيه لعباد الألفاظ الذين يرصونها رصا ، من غير أن تكون لها دلالاتها الدقيقة على المعانى المرادة .

ولقد ظلت البلاد العربية بمعناها الواسع منذ أيام المؤرخ ابن خلدون فى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى وهى لم تشهد كاتبا مؤلفا مترسلا مثل فارس الشدياق الذى جاء بعد ابن خلدون بأربعة قرون كاملة من الصنعة البيانية والمحسنات البديعة . انك وأنت تقرأ للشدياق بعض موضوعاته عن الذوق ، والموسيقى ، وأخلاق العلماء ، والتمدن ، أو بعض فصول من رحلتيه الى مالطة وأوربا يخيل اليك أنك تقرأ فصلا من كتاب « مقدمة ابن خلدون » ، فهناك كما هنا الترسل ، والدلالة الحقيقية للكلام ، وسلامة المقدمات المفضية الى سلامة النتائج ، والتحليل ، والتسلسل المنطقى ، والبعد عن رصف العبارات والحشو والتكلف ، والمهم فوق هذا هو صحة اللغة وعربية التراكيب .

وما ظنك بكاتب يقول عن الذوق : (الذوق فى الكلام ، كالذوق فى الطعام ، فى أن كلا منهما منشؤه الألفة والعادة . فمن قلة الذوق المعنوى أنه لم يوضع فى لغة من اللغات لفظة خاصة به بضده ، وانما يذكر أهل المعانى والبيان شيئا من أثمارهما ،

فيقولون مثلا : هذه استعارة حسنة ، وهذا تشبيه بديع ، أو هذه استعارة مستهجنة ، وهذا تشبيه بعيد ، ولا يقولون ان ذلك من الذوق وعدمه ، مع أنه هو مدار ذلك ، وليس لغيره مدخل فيه . لأن الشاعر الذى يرتكب ما يخل بالذوق ربما كان أعلم أهل زمانه باللغة وبكلام العرب ، فاتيانه والحالة هذه بما يروق النقاد ناشىء عن العلم والذوق ، واتيانه بغير ذلك من عدم الذوق لا من الجهل) ؟

وما ظنك بكاتب فى النصف الأول من القرن التاسع عشر يقول عن التمدن : (لا يخفى أن لفظة التمدن مأخوذة من المدنية ، والمدنية مشتقة من « مدن » بمعنى أقام ، على القول الأصح ، وان كان صاحب « القاموس » قد اضطرب فيها ، فجعلها مرة من « ادن » ، ومرة من « مدن » . وكيف كان فان مرادف التمدن فى اللغات الافرنجية من معنى المدينة ، وهو عندهم — فى الأظهر — عبارة عن استجماع كل ما يلزم لأهل المدينة من اللوازم البدنية والعقلية . فقولهم — مثلا — هذا رجل متمدن ، ينزل منزلة قولنا : متأدب ، كيس ، خبير ، وما أشبه ذلك . ومع بلوغ هذه اللفظة عندهم الى أقصى مدى الشهرة ، وجريها على الألسنة والأقلام ، لم يزل عليها ظلام الالتباس والابهام ، فان كل صاحب صنعة يظن أن وجود صنعته بخصوصها هو المراد من التمدن ، فاذا كان أحد المصورين مثلا يذهب الى بلاد ولا يجد فيها من أهل حرفته ، يحكم بأن تلك البلاد غير متمدنة ، وكذا المغنى والرقاص ونحوهما . وضد التمدن عندهم

هو الحالة الهمجية ، وهى الخالية من الترتيب والنظام ، فالحالة الأولى عندهم هى التى اتصف بها أهل أوربا جميعا ، والحالة الثانية هى التى يجودون بها على غيرهم !) .

ان مثل هذا الكلام الواضح المرسل المنطقى المرتب الفكرة المهتم بالمعنى قبل الاهتمام بزخرف العبارة قد طال عهد الشرق العربى به زمنا قبل العصر العثمانى بأكثر من قرن . فكان جديدا حين كتبه فارس الشدياق ، وكان جديدا حين كتب مثله فى مصر رائد نهضتنا الحديثة الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى . وقد كان رفاعة والشدياق متعاصرين ومتقاربين فى زمن المولد ، بل كانا رفيقين فى تحرير « الوقائع المصرية » ولكل منهما فضله الذى لا يجحد فى حركة التجديد فى النثر العربى الحديث . وحسبك أن تلقى نظرة على كتاب « منـاهج الآداب المصرية » لرفاعة الطهطاوى لترى فيه تجديدا فى موضوعات تتناول الصـناعة والزراعة والتجارة والآداب ومنابع الثروة ، والرقى الاجتماعى ، وترى فيه تجديدا فى الأسلوب بالكلام المرسل المصيب للهدف رأسا من غير تحليات ولا زخارف ولا محسنات .

ولقد كان الشدياق حين أصدر صحيفة الجوائب فى الآستانة سنة ١٨٦٠ يحررها على طريقته الجديدة المترسلة فى الكتابة ، الهادفة الى الموضوع ، الخالية من الصـنعة ، وكانت الجوائب تجوب العالم العربى والاسلامى كله وتنتشر فيهما على مقياس وسيع ، ومن هنا كان أثر الشدياق فى تطور النثر الحديث أوسع مدى ، وأكثر انطلاقا .

واذا كان قد عاصر الشدياق اللبنانى المولد كاتب وعلم آخر من أعلام النهضة الحديثة فى القرن التاسع عشر ، وزميل للشدياق فى مدرسة عين ورقة ، وهو « بطرس البستانى » صاحب دائرة المعارف ، ومحيط المحيط ، فان الانصاف يقتضينا أن نقول كلمة فى الفرق بين أسلوب الرجلين فى الكتابة ، فالبستانى لم يكن يهتم بعبارته من حيث تركيبها وبناؤها اللغوى وصحتها ، بل كان همه مصروفا الى الترجمة والنقل كيفما جاءت عبارته . أما أحمد فارس الشدياق فكان يتحرى دائما أفصح الأساليب وأصح العبارات وأسلمها لغة وأداء ، حتى لقد غالى الأستاذ مارون عبود فجعله مؤسس النهضة الحديثة وزعيمها [1] فى لبنان ، على حين تواضع غيره فجعلوه واحدا [2] من رواد النهضة الحديثة فى الأدب ، وعده الأستاذ أنيس المقدسى « صاحب يد طولى فى النهضة العربية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر ، فمهدت السبيل للتقدم الأدبى العظيم الذى عرف به القرن العشرون » [3] .

كان فارس الشدياق عدوا للمحسنات ، ولعله أدرك ـــ وخاصة فى كتابه «الساق» ـــ أن أنصار الاستعارات والمحسنات من عشاق القديم لن يعدوه بليغا بمقتضى مفهومهم للبلاغة فى عصره ، فقال فى هذا الصدد : (فأما اذا تعنت على أحد بكون

---

(١) رواد النهضة الحديثة لمارون عبود .

(٢) فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى ج ١

(٣) الفنون الادبية وأعلامها ـــ لانيس المقدسى ص ١٤٨

عبارتى غير بليغة ــ أى غير متبلة بتوابل التجنيس والترصيع ، والاستعارات والكنايات ، فأقول له : انى لمـــا تقيدت بخدمة جنابه فى انشاء هـــذا المؤلف لم يكن يخطر ببالى التفتازانى والسكاكى والآمدى والواحدى والزمخشرى والبســـتى وابن المعتز وابن النبيه وابن نباتة ، وانما كانت خواطرى كلها مشتغلة بوصف الجمال) ، وفى موطن آخر يهاجم أنصار الاستعارات والتشبيهات المبتذلة قائلا : (وما أدرى ما الذى حسَّن لأرباب فن الانشاء أن يضيعوا وقتهم بهذه الاستعارات والتشـــبيهات المبتذلة ، وبنظم الفقر المتماثلة فى المعنى ، مع أن العالم يتأتى له أن يبدى علمه بعبارة واحدة اذا كانت رشيقة اللفظ ، بليغة المعنى)[1] .

أما رأى الشدياق فى « السجع » فلم يكن بأحسن من رأيه فى الاستعارات والكنايات وبقية المحسنات ، وهو يرى استعماله بعض الحين ، لأن كثرة استعماله تضيق مذاهب القول ، وتسد مسالك التعبير ، ففيه من المشقة والكلفة أكثر مما فى الشعر ، وقد أحسن التعبير عن رأيه قائلا : (السجع للمؤلف كالرجل من خشب للماشى ، فينبغى لى أن لا أتوكأ عليه فى جميع طرق التعبير ، لئلا تضيق بى مذاهبه ، أو يرمينى فى ورطة لا مناص منها . ولقد رأيت أن كلفة السجع أشق من كلفة النظم ، فانه

---

(١) الساق على الساق ــ ص ٤٦ ــ الكتاب الثانى .

لا يشترط فى أبيات القصيدة من الارتباط والمناسبة ما يشترط فى الفقر المسجعة . وكثيرا ما ترى الساجع قد دارت به القافية عن طريقه التى سلك فيها حتى تبلغه الى ما لم يكن يرتضيه لو كان غير متقيد بها) . ولهذا استعمل الشدياق السجع بمقدار ، فلجأ اليه فى مقدمات كتبه ، كما استعمله فى « الساق على الساق » حتى الفصل التاسع منه ، ثم تركه حتى أول الفصل الثالث عشر ليبدأ بأولى مقاماته حتى تبلغ أربع مقامات فى الكتاب كله . ولعله كان يعاود السجع فى الكتاب من مقامة الى مقامة معاودة للقديم من ناحية ، وتدريبا لقريحته من ناحية أخرى ، كما يقول فى أولى مقاماته : (قد مضت على برهة من الدهر من غير أن أتكلف السجع والتجنيس ، وأحسبنى نسيت ذلك ! فلا بد من أن أختبر قريحتى فى هذا الفصل فانه أولى به من غيره ...) [1] ولاحظ معى أيها القارىء الكريم اعترافه هنا بأنه يتكلف السجع والتجنيس ! وليس بعد هذا برهان على مجافاتهما لفطرته وطبيعته المنطلقة المترسلة .

وتبدو مراوحة الشدياق بين السجع والترسل فى رسائله الخاصة حيث كان ذوق العصر يميل الى السجع أكثر ، ففى رسالة منه لأخيه طنوس بعث بها اليه من مالطة سنة ١٨٤٠ نراه يترسل فى أولها ثم يجنح الى السجع فى أواخرها فيقول :

---

(١) المصدر السابق ــ ص ٦٢

(... فكيف بالاقتناع ، والقلب فى التيــاع ، والدمع فى تهماع ؟ ومن أين السلو ، والبين فى غلو ، والوجد فى نمو ؟

ويميل فارس الشدياق فى كتابته الى الاستطراد ، وقد لاحظنا هذه الخصيصة عند الكتاب المترسلين المنطلقين كالأمير شكيب أرسلان ، والسيد رشيد رضا . ففى كتابى رحلته الى مالطة وأوربا يستطرد من موضوع فى الرحلة الى نقد القاموس المحيط ويتعقبه فى بضعة مواضع [1] ، وفى موضع آخر يستطرد الى ذكر الصابون وأحسن أنواعه وأصل صناعته عند العرب ، وفى موضع آخر يستطرد الى ذكر متوســط أعمار الحيــوان والطيــور والزواحف ! ومن استطراداته اللطيفة فى الرحلتين ما ذكره عن حلق اللحية وطريقته ، واشتهار الأطعمة الفاخرة فى الشام منذ أيام معاوية لأنه كان يتأنق فى طعامه ، وسيرة حيــاة فرانكلين الأمريكى بمناسبة اختراع التلغراف ، وتاريخ ترجمات التوراة الى اللغات ومنها العربية ، وترجمة حياة چان دارك فى معرض الحديث عن الفرنسيين . ومن عجائب استطراداته الفظيعة فى كتابه « الساق على الساق » ما ذكره عن الكتب الخاصة بسير البابوات وانحراف كثير منهم عن سواء السبيل [2] .

وتدلنا استطرادات الشدياق التى لا حصر لها فى كل ما كتبه على ازدحام المعلومات والمعارف الانسانية لديه ، فقد كان الرجل

---

(١) الواسطة ــ صفحات ١٢ ــ ٢٥ ــ ٣٠

(٢) الساق على الساق ــ ص ١٠٤ . وتمد أخبار البابوات التى نقلهــا الشدياق عن كتب المؤرخين الغربيين مما لا يكاد العقل يتصوره لشناعته .

واسع القراءة مدمن المطالعة ، كما تدلنا على فضيلة فى الكاتب وهى حرصه الشديد على امداد القارىء بأكبر قدر ممكن من المعرفة .

والطريف أن الشدياق يسمى الاستطراد فى أسلوبه « زلق قلم » ، ويعبر عن ذلك بقوله : (ثم انى كنت ابتدأت كلاما فى أول هذا الفصل ولم أنهه ، فان القلم زلق بى الى معنى آخر على عادته ..) [1] .

ومن خصائص أسلوب الشدياق دقة الوصف ، وعمق التحليل ، وبراعة التصوير والتمثيل وخاصة حين يصور لك المعنويات بالمحسوسات . ولقد بلغ من دقة وصفه أنه يصور لك الأمور الصغيرة الجزئية فتشعر مع الدقة بقيمتها وخطرها ، وأنه يستشف لك ما وراء الظواهر من أعمق المعانى . اسمعه وهو يصف لك ملجأ للعجزة فى مالطة : (والرابع للطاعنين فى السن العاجزين عن تحصيل معاشهم ، المادين لوداع الدنيا يدا ، والمغمضين عن وزرها ونعيمها عينا . قد أصبحوا من هذه الحياة على شفا جرف هار ، يعتبر بهم اللبيب ، ويتعظ بهم المستهتر فى حب هذه الدنيا الغرور ، اذ تراهم كالأغرار من الأولاد ، قد انحنت منهم القدود لما استوى عندهم داعى الأجل ، وأظلمت منهم الأبصار بعد أن أضاء فيهم صبح المشيب ، وانحلت منهم القوى بعد أن غلت منهم الأفكار والنهى ، فثم يقضون ما بقى

---

(١) المصدر السابق ــ ص ٦٦

من ظمء حياتهم بكان وصار [1] ، وانظر الى اللوحة التعبيرية التالية التى تصور مشية النساء فى مالطة : (وللنساء زهو وعجب اذا مشين ، أكثر من زهو الرجال [2] ، فترى المرأة تخطو كالعروس المزفوفة الى بعلها ، وهى ممسكة بطرف الوشاح باليد اليسرى ، وبطرف غطاء رأسها باليمنى ، فتكون على هذه الحالة أشغل من ذات النحيين !) .

ومن تصويره الدقيق للخبز اليابس فى أديرة الرهبان المتقشفين قوله : (.. حتى ان الخبز الذى كثيراً ما يأكلونه بغير ادام ، ليس كخبز الناس ، فانهم بعد أن يخبزوه رقيقا يشمسونه أياما متوالية حتى يجف وييبس ، بحيث يمكن للانسان [3] اذا أخذ بكلتا يديه رغيفين وضرب أحدهما بالآخر أن يخيف بقرقعتهما جميع جرذان الدير ! أو أن يتخذهما متخذ الناقوس الذى يضرب به لأوقات الصلاة ! ولا يقدرون على أكله الا منقوعا بالماء حتى يعود عجينا !)

ومن صوره اللطيفة المضحكة تصويره لامرأة كبيرة الأنف — ولا تنس أن الشدياق نفسه كان كبير الأنف ، قال : (... واذا بامرأة متنقبة أقبلت علىّ وقد تنأ من تحت نقابها شىء شبيه بالقلة ! فظننت أنها جعلت حنجور [4] عطر عند أنفها لتشمه

---

(١) لقد رأيت هذه الصورة الحية فى ملجأ العجزة بحلب ، وهو من المشروعات الخيرية لصديقنا الكريم الأستاذ فتح الله الصقال المحامى ، وكنت برفقة الصديق الشاعر الأستاذ محمد مصطفى الماحى .

(٢) لقد لاحظ الشدياق قبل هذا زهو الرجال المالطيين فى مشيهم ...

(٣) ان تعدية الفعل يمكن باللام غير صحيحة ، وهذه من مآخذ الشدياق اللغوية التى رفع فيها أحيانا ...

(٤) الحنجور = السفط الصغير .

عند مرورها على الجيف فى أسواق المدينة ... فرفعت النقاب واذا بأنفها الناتىء يضيق عنه وجهها ، وكأنه واجه أنفى ليحييه ! فخطر ببالى ما قيل عن ذلك الغراب الذى كان يخمع [1] ، وألف غرابا مهيض الجناح ! وأن أحـد الشعراء لما أبصرهمـا قال : ما كنت أدرى ما أراده بعضهم بقوله : ان الطيور على آلافها تقع ، حتى رأيت هذين الغرابين !)

ومن دقة تحليل الشدياق ما حلل به الكذب وقسمه الى أنواع منها الكذب النىء المائع ، والكذب المطبوخ الناضج ، والكذب المتبل الحريف المحرق . واستحضر لكل نوع أمثلة طريفة تدل على احاطته بكثير من أخلاق الناس ورذائل المجتمع . (فالكذب النىء المائع هو الذى اتصف به أهل البلاد الشرقية ، وذلك كأن يعـدك الانسان بالحضـور فى الساعة الفلانية ثم يخلف . أو يعدك بقضاء حاجة وفى قلبه أن لا يقضيها ، أو أن يسافر الى استنبول ويقول : ان مؤلف كتاب الساق على الساق قد ضغط بين عاجلتين ــ أى عربتين ــ فانكسرت ساقاه جزاء له بما عنون كتابه به ! أو أن تكون قد أرسلت له كتابا فينكر وصوله تملصا من لومك له . أو أن يقول لك : قد أطريتُ عليك البارحة عند فلان فهو يبلغك السلام ويدعوك الى منزله ، فاذا سرت اليه وجدت الأمر بالعكس : أو أن يقول : قد نويت أن أسافر غدا الى المشرق ثم يسافر الى المغرب ! وغير ذلك مما لا يجدى نفعا ..)

---

(١) الخمع = نوع من العرج .

ويمضى الشدياق بعد هـــذا فى استحضار أمثلة عجيبة من أنواع الكذب الأخرى ، فتدهش لهذه الدقة والمتابعة والتحليل الذى لا يحيط به الا ذكى واع ...

ولعلك لاحظت من هذه النماذج أن الشدياق يخلط الجد بالهزل ، والمزح بالوقار . وأنه يتبل صوره وتعبيراته بالفكاهة التى قد تصـــل أحيانا الى اللذع والتهكم والسخرية .. فلا تستطيع أن تعــرف أجاد" هو أم هازل . وفى « الســـاق على الساق » صور كثيرة من هذا ، فينبغى لك الحذر وأنت تقرؤها حتى لا يختلط عليك أمر فى سيرة حياته التى بثها فى تضاعيف هذا الكتاب الرائع .

وسنعود اليك بعد قليـــل لنعالج فكاهة الشدياق ولذعه وسخريته فى فصل خاص . وتلمح فى طريقة الشدياق فى الكتابة نوعا من الاصرار وعدم الاستسلام لما تواضع الناس عليه ، وعدم التســـليم بالأفكار وقبـــولها قضايا مســـلمات لا تقبل المناقشة . وعقلية بعيدة عن هذه السهولة والطواعية فى قبول المسائل . فهو لا بد أن يقف عند المسألة ويناقشها ، وقد يتحرى أصولها وجذورها حتى يردها الى الحقيقة التى كان يهدف اليها . وفى كتابيه عن أخبار مالطة وأوربا ترى كثيرا من هذه المناقشات التى تدرك منها لأول وهلة أن الرجل ليس سهل التلقى لكل ما يقرؤه ويسمعه .

فاذا قال مؤلف أوربى ان أهل مالطة يربون التوت ليحصلوا من دودة القز على حرير أعلى من حرير ايطاليا ، استدرك عليه

الشدياق قائلا : « قلت : وقد علم بالتجربة أيضا أن دود القز لا يعيش فى هذه الجزيرة ، والمؤلف ــ يعنى الأوربى ــ انما كتب هذا عند الشروع فى تربية التوت ...

ويشير المرحوم مارون عبود الى هذه الظاهرة فى كتابات الشدياق قائلا : (ولم يكن يترجم ليقف مكتوف اليدين ازاء من أخذ عنه ، بل يناقش كل فكرة نقاشا عنيفا . وذلك شأنه فى كل ما صنف وألف . فهو جدلى من الطراز الأول ..) [1]

واذا قال بعض الناس ان جهل الانسان بلغـة قوم يفوت عليه الطرب بألحان أغانيهم وقف له الشدياق قائلا : (ومن الغلط البين أن يقول أحد انى لم أطرب لهذه الألحان لجهلى باللغة ، فان أصل الطرب انما يكون عن الصوت لا عن الكلام المغنى به..)[2]

واذا قرأ الشدياق فى كتاب منسوب الى أرسطو أن أهل البلاد الحارة يعمرون أكثر من أهل البلاد الباردة ، لأن الحرارة الطبيعية يتأتى حفظها فى الأولى أكثر من الثانية .. اذا قرأ ذلك لا يقبله على علاته حتى ولو كان الفيلسوف أرسطو قائله ، ثم يناقشه قائلا : (ولا أرى قوله مطابقا للواقع ، الا أن يحمل قوله البلاد الباردة على معنى المفرطة فى البرودة ، والبلاد الحارة على معنى المعتدلة فى الحرارة) [3]

رحم الله الشدياق ! لقد كان كاتبا يحترم عقله ، ولا يهدر قيمته أمام كل قائل ، وازاء أى اعتبار ...

---

(١) صقر لبنان ــ لمارون عبود ــ ص ١٣٤

(٢) الواسطة فى أخبار مالطة ــ ص ٥٥

(٦) المصدر السابق ص ٩١

كاتب المقال

لن يفوتنا ونحن نتحدث عن الشدياق الكاتب وأسلوبه فى الكتابة أن نشير الى دوره فى كتابة المقالة الأدبية والسياسية والاجتماعية فى العصر الحديث . واذا كان الشيخ رفاعة الطهطاوى رائدا للمقالة فى مصر فى حركة النهضة الحديثة ، فان الشدياق كان رائد اللبنانيين فى المقالة فى الحركة نفسها . ولقد جاء بعد رفاعة فى مصر أعلام من كتاب المقالة منهم الشيخ محمد عبده ، وأديب اسحاق ، ومحمد السباعى ، والمنفلوطى ، حتى انتهت السلسلة الى الدكتور محمد حسين هيكل ، وابراهيم المازنى ، وعباس محمود العقاد،والدكتور أحمد أمين ، وأحمدحسن الزيات ، والدكتورزكى نجيبمحمود فى يومنا هذا . كما جاء بعد الشدياق — أو جاء معه — فى لبنان المعلم بطرس البستانى ، وسليم البستانى ، وأديب اسحاق ، وفرح أنطون ، ويعقوب صروف ، والشيخ نجيب الحداد ، حتى انتهت السلسلة الى أمين الريحانى ، وجبران خليل جبران ، والآنسة مى ، ومارون عبود وغيرهم من كتاب المقال اللبنانيين .

ولقد كانت صحيفة الجوائب التى أنشأها الشدياق فى الآستانة هى المجال الفسيح لمقالاته التى كان يطالع بها قراء

الجريدة فى العالمين العربى والاسلامى . ولقد عدل الشدياق عن تسمية نظراته وخطراته « بالمقالة » كما اصطلحنا بعد ذلك على تسميتها ، ولكنه أسماها « جملة أدبية » [1] . وتابعه بعد ذلك سليم البستانى محرر « الجنان » التى أنشأها والده سنة ١٨٧٠ ، فسمى الفصول السياسية التى كان يكتبها فى هذه المجلة باسم « جملة سياسية » .

ويظهر أن لفظة « جملة » المقصود بها « مقالة » لم تصادف من الذوق العام قبولا فى الاستعمال ، فسرعان ما وجدنا كلمة « المقال » أو « المقالة » تنتشر وتطرد كلمة « جملة » وتحل محلها .

وقد جرى على مقالات الشدياق من خصائص الأسلوب ما جرى على كتاباته كلها ... فقد كان يسجع فى هذه المقالات حينا ، ويترسل فيها متحررا من السجع أكثر الأحيان . ولكنه — على كل حال — كان يخص هـــذه المقالات المركزة بالعمق والتحليل ودراســـة التفاصيل ، وكان بالطبع يبعـــد بها عن الاستطراد الذى لم يكن له فيها مجال ، وان كان لم يخلها من الفكاهة واللذع على مألوف عادته ، ومنسوق فطرته .

وكان يبدأ هذه المقالات بعبارة : « من الناس » ، وهى

---

(١) يلاحظ أن الشدياق كان يسمى هذه الفصول أحيانا « بالمقالة » ، كما فعل فى مقالة « بديع الاعجاز » .

بداية تدل على اتجاه هذه المقالات الاجتماعى ، وميلها الى النقد للمجتمع وللناس الذين تتألف منهم الجماعة الانسانية الكبرى .

ففى مقالته التى عنوانها مراتب الفضلاء يصور لناالشدياق طرازا من الناس يتصــدر المجالس ، ويدعى العلم ويتفيهق فى الحديث ، ويبالغ فى النفج ــ أى الفشر والفخر الكاذب ــ وهو جاهل لا علم عنده ، خواء لا غناء فيه . كما يصور لنا طرازا آخر يحضر المجالس فيسمع أكثر مما يثرثر ، ويتحرج من الكلام ورواية الأخبار مخافة أن يسقط أو أن تبدو منه عثرة ... فيظنه الحضور جاهلا مع أنه عالم متى خلا بنفسه ، وانفــرد بقلمه وطرسه . وفى هذه المقالة نرى الشدياق يجرى فيها على السجع وزخرفة الكلام من أولها الى آخرها ، بل نراه يتعمد الاغراب فى بعض الألفاظ ، فيعدل عن الكلمات المأنوســة المألوفة الى كلمات من دفائن المعاجم اللغوية ، كاستعماله لفظة « النات » بدلا من كلمة « الناس » ... ولعله بهذا يدل بثروته اللغوية التى جمع منها فأوعى ...

وفى مقابل هذه المقالة المصــنوعة المسجوعة نرى له مقالة أخرى بعنوان « أخلاق العلماء » حررها من السجع ومن أى زخرف من القول ، وجرى فيها على طريقة الترســل المطلق . وقسم العلماء من حيث الأخلاق الى من يتعلم وهو مجبول على حميد الصفات فلا يزيده العلم الا دماثة خلق ، وحسن تصرف ، واستقامة طبع ، ومن يتعلم وفى فطرته بعض السجايا الذميمة ،

فيهذبه العلم بعض التهـــذيب . ومن يتعلم وهو على الأخلاق الذميمة بتمامها ، فلا يزداد بالعلم الا طيشا ، وسوء خلق .

ولا بأس أن ننقل هنا جزءا من هذه المقالة وفيها الدلالة الكافية على ما نقول . يقول فارس الشدياق : (من الناس من يتعلم العلم ، وهو مجبول على صـــفات حميدة ، فيزداد هدى ورشدا ، وورعا ودماثة أخلاق وحسن تصرف ، واستقامة طبع ، ونزاهة نفس ، وصفاء عقيدة ، واخلاص مودة ، وسلامة نية ، وعفة قلب ولسان ، وانبساط يد . فمثله كمثل الجوهر الشفاف اذا قابله شعاع الشمس ، أو كمثل اناء من زجاج نظيف صاف ، اذا وضع فيه الماء لم يغير من طعمه شيئا ، فتراه دائما مقبلا على نفع الناس ، ساعيا فى اصلاح شـــئونهم وتسنية أحوالهم ... ومنهم من يتعلمه وهو مجبول على بعض صفات ذميمة ، فيتهذب به بعض التهذب ، ويتغير به بعض التغير ، فشأنه أن يبقى فيه علمه وشره كالقرنين المتكافئين . فمرة يقوى علمه على شره ، وذلك اذا تذكر ما مر به من قصص الصالحين ، وسيرة أهل السمت والخير ، فيؤثر الاقتداء بهم . ومرة يقوى شره على علمه ، اذ يطمس الله على قلبه ، فينسى ما قرأه وسمعه ويتبع هواه ، فمثله كمثل الشمس فى شهر الغيم ، تبـــدو مرة وتختفى أخرى ... ومنهم من يتعلم وهو على الأخـــلاق الذميمة ، فلا يزداد به الا طيشا وترعا الى الشر ، واضطرابا فى الرأى ، وحدة فى الطبع ، وشراسة فى المعـــاملة ، وتطاولا على حقوق الناس ، وتهافتا على الطعن فيهم ، فمثله كمثل شـــمعة موقدة معرضة

لعواصف الرياح ، فلا تزال الرياح تعبث بها يمنة ويسرة ، حتى يتمنى الناظر اليها اطفاءها بالمرة .)[1]

والحق أن مقالات الشدياق فى « الجوائب » برصانتها واستقامة لغتها وأصالة أسلوبها العربى غير المشوب ، قد كسفت مقالات الرائد الآخر زميله العظيم بطرس البستانى فى مجلته « الجنان » بركاكة أسلوبها ، وضعف بنائها اللغوى ، ومجافاتها لأساليب الفصاح من الكتاب العرب . ولهذا اضطر بطرس البستانى أن يعلن فى السنة الثانية لمجلته تغييرا فى تحريرها برفع أسلوبها ، واختيار ألفاظها اللغوية المعجمية قائلا : (انه لما كان الجنان قد تجنب استعمال الألفاظ اللغوية فى السنة الأولى من سنوات نشره ، وكان من المفيد أن لا يتجنب ذلك بعد أن يكون جمهور القراء راغبا فى توسيع دائرة اللغة باستعمال الألفاظ الكثيرة ، كان لا بد لنا من القيام بحق ذلك الأمر المهم . فنسأل الله التوفيق ، ونطلب الى حضرة قرائه أن يعذرونا اذا أتعبناهم بتكرار مراجعة القواميس) .

من هذا البيان الوجيز للرائد بطرس البستانى نعرف فضل الشدياق « وجوائبه » فى اضطرار مجلة الجنان لرفع مستوى أسلوبها ولغتها ، ولعل هذا كان باعثا لصحافة لبنان كلها أن ترتفع بلغة كتابتها وأساليب تعبيرها الى المستوى العالى الذى كان يمثله فن الشدياق الأدبى فى كتابته ...

---

(١) هذه المقالة جيدة جدا ، فارجع اليها كاملة فى كتاب « أعيان البيان » لحسن السندوبى .

ولن نختم هذا الفصل دون الاشـــارة الى تقدير الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده للغة الشدياق وأسلوبه فى الكتابة ، فقد أطرى الامام يوما فى بعض مجالســـه الشيخ أحمد فارس الشدياق فى اللغة والانشاء ، ويظهر أن السيد رشيد رضا ــ وكان حاضرا هذا المجلس ــ لم يكن موافقا على هذا الرأى ، فاعترض على الأستاذ الامام قائلا : أين هو من أسلوب العروة الوثقى الرفيع ووضعكم لفرائد اللغة الطريفة فى مواضعها منها ؟ فكان جواب الامام : تلك ألفاظ تديرها ، أما الشيخ أحمد فارس فهو امام فى اللغة ، وأما أسلوبه فى الكتابة فغريب ، قلما فطن له الأدباء . ويعجب السيد رشيد رضا من تفضيل الأستاذ الامام محمد عبده لفارس الشـــدياق على نفسه فى الانشـــاء ، مع أنه أبلغ [1] منه !

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام ــ لمحمد رشيد رضا ص ٩٩٧

بين الناقد اللغوى وناقد المجتمع

لقد رزق فارس الشدياق لسانا لا يسكت على شىء ، وعينا لا تغمض عن شىء ، وقلما لا يمسك عن شىء . واذا كانت عينه تقع على الجميل فتحسه وتستشعر لذته ، فقد كانت كذلك تقع على القبيح فلا يفوتها أن تنقده وتوجه الأنظار اليه ، وتشهر به . وتلك فطـرة فطر الله صـاحبنا عليها ، ما له فيها يد ولا اختيار ، فقد خُلق على ما فيه غير مخير أن يغير من أمر نفسه شيئا . ألم يكن الشاعر الحطيئة مفطور اللسان على الهجاء فلم تسلم من لسانه حتى نفسه التى بين جنبيه ، وحتى أبوه وأمه ؟

وقد جرّت طبيعة النقد على الشـدياق كثيرا من أسباب الخصومات بينه وبين طائفة من أعلام وقته مما سنعرض له فى موضعه . ولكن لا بد أن نلتمس له العذر من سجيته . فهو ينقد كل شىء ، لأنه لم يكن يعجبه أى شىء . ولعل لطبيعة القلق النفسى فيه منذ حداثته يدا فى هذا .

ان بعض الناس قد يرون ما لا يعجب ، فيتغاضون ويغضون الطرف ويدعون المسألة تمر بسلام ، ولكن الشدياق غير هذا .. لقد رأى من زميله ورئيسه المستشرق الانجليزى الدكتور لى

ما لا يعجبه فصارحه به ، ورآه ينظم شعرا ضعيفا معيبا معلولا فصارحه برأيه . وألف أخوه طنوس الشدياق كتابه (أخبار الأعيان فى جبل لبنان) وبعث بنسخة منه اليه وهو فى لندن ، فلم يصبر « فارس » على ما رأى فيها من مآخذ وأوهام ، وبعث الى أخيه رسالة ينتقـــد فيها الكتاب فى بعض الحقائق والحوادث التاريخية والأخبار الشخصية ، بل فى بعض المآخذ اللغوية التى وقع فيها أخوه المؤلف ، وأنكر عليه عدة أشياء منها (... والخامس : أنكم عند ذكر نسب الأعيان لم تذكروا الوقت والتـــاريخ ، بل اكتفيتم بقـــولكم : فلان ولد فلانا . والسادس : أنكم لم تتعرضوا لذكر كل من نبغ فى شعر أو علم أو فصاحة أو مأثرة ، ولم ترووا شيئا عن الذين وصفتموهم بالعالم . والسابع : أنكم لم تصرفوا الهمة فى تنقيح العبارات والألفاظ ، فقلتم : أهلها اسلام ونصارى ، وحقه : مسلمون . وقلتم : أعرض ، والصواب : عرض ، ومهاب ، وحقه : مهيب ، ونضر ، وحقه : نظر وأشياء كثيرة لا بد أن تعينوا لها محلا فى آخر الكتاب لاصلاحها) .

وقد تكون طبيعة المجاملة بين أخ وأخيه تقتضى أن يثنى على أثر أدبى أخرجه ، أو على الأقل تتطلب السكوت عن نقده ، ولكن الشدياق ناقد بطبعه ، فكيف يسكت على خطأ رآه ، أو عيب وقعت عينه عليه ؟ ويحدثنا الشدياق فى « الساق » عن أثر النقد فى الشعر قائلا : (على أن من نبغ فى الشعر ان لم يلق من ينتقد قوله مرة ، ومن يخطئه أخرى ، فلا يمكنه أن يصل الى

مرتبة الشعراء المجيدين . ولو بقى ينظم أبياتا ويودعها سمعه فقط لما عرف الخطأ من الصواب قط ، فلا يكاد أحد يصيب الا عن خطأ ...)

على أن طبيعة النقد للنقد ذاته قد تنحرف أحيانا فتجر الى النقد المغرض غير المجرد . ومن المؤسف أن الشدياق قد وقع فى مثل هذا ، فكثيرا ما أدخل العوامل الشخصية والاعتبارات الخاصة فى اعتباره حين كان ينقد بعض الأدباء أو بعض الطوائف . ويستظهر الأستاذ مارون عبود أن الشدياق قد انتقد القاموس المحيط للفيروز آبادى ، فى كتابه المسمى : الجاسوس على القاموس ، ليهدم كتاب « محيط المحيط » الذى اعتمد فيه بطرس البستانى على قاموس الفيروز آبادى ، فأصاب عصفورين بحجر واحد[1] .

واذا كنا سنلتقى بعد قليل بالشدياق الناقد اللغوى فى الفصل الخاص بمعاركه وخصوماته الأدبية ، فاننا هنا سنعرض ألوانا من نقده الاجتماعى للناس والجماعات والهيئات والحكومات والأزياء ومفارقات المجتمع ، والعادات والتقاليد ، والرجال والنساء ، وأرباب المهن والصناعات ، بل حتى نقده لطبيعة البلاد التى زارها فى تكوينها الجغرافى ، وما يختلف عليها من الليل والنهار ، والصيف والشتاء ، والحر والبرد ، والريح

---

(١) صقر لبنان ـ لمارون عبود ـ ص ١٤٢

العاصفة ، والنسيم العليل ، والشمس الضاحكة أو المنتقبة وراء الغمام .

ويبدو عنف الشدياق فى نقده للمجتمعات والحياة فى مالطة وأوربا ــ وخاصة انجلترة وفرنسا ــ حتى ليخيل الى قارئه أنه متحامل على القــوم أو متجن عليهم ، أو منحــرف أو مائل الهوى ، ولكنه ينفى ذلك نفيا قاطعا حيث يقول فى مقدمة رحلته الى مالطة : (وليكن معلوما عند القارىء والسامع والدارى ، أنى فى كل ما وصفت به الانكليز والفرنسيس وغيرهم من أهل أوربا ، لم يمل بى هوى ولا غرض ، بغضا أو حبا ، اذ ليس لى حذل مع أحد منهم ولا ضلع ، ولا انحراف ولا ميل ولا ضر ولا نفع ، وانما رويت عنهم ما رويت ، وحكيت ما حكيت ، بحسب ما ظهر لى أنه الصواب ، فلا ينبغى أن يحمل قولى على ضغن أو اغضاب ، وأعوذ بالله من أن أبخس الناس أشياءهم ، فأتعمد القول فيما شانهم وساءهم ، الا أنه لا ينكر أن الانسان محل النقص والمعيب ، وأنه قل من ينظر الى نفسه بعين المصيب . وكذلك كنت أقول للانكليز ، فلم يكن أحد منهم ينكر قولى أو ينسبه الى التعجيز ...) [1]

ومن نقدات الشدياق للمجتمع تلك المتناقضات والمفارقات التى تبدو فيه ، فان الناس لو سمعوا مثلا بأن امرأة متزوجة

---

(١) لاحظ السجع هنا ، وهو يؤكد ماقلناه قبلا من جنوحه الى استعمال السجع والمحسنات فى مقدمات كتبه وفى بعض الأحيان .

تحب غير زوجها لأنكروا عليها ذلك الفعل كل الانكار واستفظعوا صدوره منها أيما استفظاع ، فيشيع أمرها ولا يبقى فى البلد واحد ألا ويروى عنها حكاية أو ترهة ، وأما اذا سمعوا عن الرجل أنه يحب غير زوجته فانهم يحملون فعله على وجه لا يسوؤه ، وقد يتلمسون له الأعذار بأن فيها عيبا ألجأه الى ذلك المسلك !

ومن الملاحظات التى لاحظها الشدياق على المجتمع الشرقى فى سلوكه نحو المرأة أن الرجل يشترى لزوجته جارية أو يستخدم لها وصيفة ، لا اشفاقا عليها ، ولا مجرد تخفيف عبء العمل المنزلى عنها ، وانما المقصود أن يجعل الخادم أو الأمة رقيبة على سيدتها حتى لا تخونه فى عرضه ـــ أما خيانة المال فغير ممكنة لأنه لا يخرج من البيت الا بعد أن يقفل صناديقه !! ـــ مع أن الجارية لا تكون الا ضالعة مع سيدتها عليه ، وان شتمتها بين يديه وأهانتها ، لأنها لا يهمها كون سيدتها تحب واحدا من الرجال أو أكثر ، بل يهمها أن تنال عند سيدتها الطيب من المأكل والمشرب .. !

ومن لاذع نقداته ومشاهداته ما رآه فى مصر من اعتزاز الأجنبى ، وانكسار المصرى ؛ فالقبعة ـــ والمراد أصحابها الأجانب ـــ تضخم على رءوس أصحابها ، والطربوش يتضاءل وينكمش على رءوس أصحابه . ونسوق هنا نص عبارته فى هذا المقام قائلا : (ومن ذلك ـــ أى من خواص مصر ـــ أن البرنيطة

فيها تنمى وتعظم ، وتغلظ وتضخم [1] ، وتتسع وتطول ، وتعرض وتعمق ، فاذا رأيتها على رأس لا بسها حسبتها شونة . وكثيرا ما كنت أتعجب من ذلك وأقول : كيف صح فى الامكان ، وبدا للعيان ، أن مثل هذه الرءوس الدميمة ، الضئيلة الذميمة ، الخسيسة اللئيمة ، المستنكرة المشئومة ، المستقذرة المهوعة ، المستقيمة المستفظعة ، المستسمجة المستشنعة ، والمسترذلة المستبشعة ، تقل هذه البرانيط المكرمة ؟ وكيف أعماها هواء مصر وكبرها الى هذا المقدار ، وقد طالما كانت فى بلادها لا تساوى قارورة الفراش ، ولا توازن ناقورة الفراش ؟ وكيف كانت هناك كالترب ، فأصبحت هنا كالتبر ؟) .

قلت لك ان الشدياق فى نقده لم يراع قريبا ولا بعيدا ، فلم يحاب قريبا لقرابته ، ولم يتجن على بعيد لانعدام السبب الرابط والصلة الجامعة . لقد زار مصر ، وذهب الى الاسكندرية وأحب مصر حبا جما ، وطفق يذكرها بالخير مدى حياته ، ويبكى على أيامه فيها ، وعلى لطف أهلها ، وأخلاق علمائها ، وطيب مناخها . ولكنه رأى فيها بعض مآخذ ، فهل أغضى عليها وغض النظر عنها ؟ كلا ! ان طبيعة الناقد الباحث وراء العيوب والناشد للكمال لم تفارقه هنا ، فلم تعجبه أخلاق أهل الاسكندرية لغلبة الروح التجارية عليهم ، ولطول مخالطتهم لأوباش الأجانب ، ويقول فى ذلك: (فأما سؤالك عن كرم أهل هذه البلدة ، فانهم

---

(١) الساق على الساق ــ ص ٣٩ من الكتاب الثانى .

كانوا فى ظهور آبائهم على غاية من السماحة والجود ، الا أنهم لما برزوا الى عالم التجارة ، وخالطوا أصحاب هذى البرانيط ، أخذوا عنهم الحرص والبخل واللئامة والرثع [1] ، بل برزوا على مشايخهم ــ يعنى الفرنجة ــ !) .

ورأى فى مصر النساء يلبسن الحبر ، والرجال يتحزمون بالحزام ، ويربطون السراويل دون الركب ، ويلبسون الجبب الطويلة الأذيال التى تكنس الأرض وتحمل ما فيها من الوسخ والقذر ، فلم يعجبه ذلك وانتقد حبر النساء لأنها لا حسن فيها ، فضلا عن غلائها ، أما حزام الرجال فانه يملأ الخصر والصدر ، ويمنع الطعام عن الهضم .. وأما الشريط الذى يربطون به السراويلات من تحت الركب فانه يوقف الدم عن سريانه فى الأرجل ودورته الى القدمين ، وأما الجبة الطويلة فان صاحبها يمشى ويكنس الأرض بأذيالها ، فيلصق بها كل ما فى الأرض من النجاسة والقذر حتى اذا وافى بيته ملأه بالرائحة الخبيثة ، فعلق بزوجته منها ما يرد الطرف عنها ، وان كانت [2] عبقة ...

ورأى الشدياق شوارع مصر وطرقات القاهرة وهى غاصة بالابل المحملة ، وأوجب على السائر فيها اذا رأى الابل مقبلة أن يخلى لها الطريق ، أولا فلا يأمن أن يفقد احدى عينيه . ولعل هذه الصورة التى أنكرها الشدياق منذ أكثر من قرن وربع قرن ، والتى زالت ــ والحمد لله ــ من شوارع القاهرة ، هى

---

(١) الرثع : الحرص الشديد .

(٢) الساق على الساق ــ الكتاب الثانى ــ ص ٣٢٢

التى لا يزال بعض المتعصبين من الأجانب يذكرونها ويتوهمون أنها باقية الى اليوم ...

ولم تعجب الشدياق فى مصر بدانة النساء وضخامة أجسامهن ، وان كان مرد ذلك الى ذوق أهلها من الرجال الذين لا يرون فى الخمائص والنحيفات حسنا ... ولعل الشدياق هو أول من أشاع فى كتاب مسطور أن نساء مصر يتخذن معجونا من الجُعَل ــ الخنافس ــ ويأكلنه فى كل غداة لكى يصبحن سمينات ، ويكون لهن عكن مطويات !!

وقد كانت تعين الشدياق على تقداته اللاذعة العميقة النافذة عين بصيرة فاحصة لاقطة ، لا تخطىء مشهدا ، ولا يفوتها ظل شىء تقع عليه . وكأنما كان سمعه وبصره ولمسه تتقرّى الأشياء وتستوعبها . ورحم الله الأستاذ مارون عبود وهو يقول عنه : (لقد أوتى عينان [1] لاقطتان ، ومخيلة خالقة ، وقريحة سيالة ، ورغبة آكلة ، ولغة لم يفلت من بين مخالبه الا القليل من مفرداتها).

فمما لم تخطئه عينا الشدياق من دقيق المشاهد فى مصر أن العاملات المصريات ــ وخاصة المشتغلات فى أعمال الهدم والحفر والبناء يقبلن على عملهن فرحات ، وهن يغنين الأغانى ، ويرسلن المواويل . ومن عبارته فى ذلك قوله : (ومن ذلك ــ أى من خواص مصر ــ أن البنات اللائى يستخدمن فى « الميرى » لحمل

---

(١) وهم المرحوم الاديب الكبير مارون عبود هنا حين رفع كلمة عينان وصفتها ، والصواب نصبها لأنها المفعول به الثانى للفعل أوتى . وهذا من أوهام العلماء !

الآجر والجبس والتراب والطين والحجر والخشب وغير ذلك ، يحملنه على رءوسهن وهن فرحات ، جامحات ، سابحات ، صادحات ، مادحات ، مارحات ، غير آحات ، ولا ترحات ، ولا دالحات ، ولا رازحات ، ولا كالحات ، ولا نائحات . ومن كان نصيبها من الآجر نظمت عليه موالا آجريا ، أو من الجبس غنت له أغنية جبسية ، كأنما هن سائرات فى زفاف عروس ...)

أرأيت كيف يكون التصوير مع لطف الالتفات الى المرائى والمشاهدات ؟

ومما لم تخطئه أذنا الشدياق فى مصر طريقة الغناء فيها بتكرير اللفظة الواحدة من الأغنية مرات ومرات . ويرى صاحبنا أن فى ذلك اضاعة لمعنى الكلام . وهنا لا تفوته الموازنة بين بلدين عربيين فى الغناء ، فمصر تكرر ، وأهل الشمال الافريقى مما وراء طرابلس لا يكررون ، فان غناءهم أشبه بالترتيل ، ويقولون انهم أخذوا هذه الطريقة عن عرب الأندلس . ولا يخفى الشدياق تبرمه بطريقة الغناء فى مصر ، فيقول فى صراحة : (غير أنى أذم من غنائهم شيئا واحدا ، وهو تكرير لفظة واحدة من بيت أو موال مرارا متعددة ، حتى يفقد السامع لذة معنى الكلام ...) [1]

---

(١) الساق على الساق : ص ٤٢

بين الفكاهة والسخرية والمجون

لم يجر الشــــدياق فى كتابته وتآليفــه مجرى الجد المطلق الصارم ، وانما كان يمزح ويمزج الجد بالفكاهة حتى يكون لما يكتبه أثر فى نفس القارىء ، فلا يضيق ولا يضجر بجفاف الجد وصرامته . وروح المزح والفكاهة طبيعــة عند بعض الكتاب الذين اشتهروا بذلك ، وهى تقترن عادة عند بعضهم بالسخرية التى قد يشتد مقدارها فتصير تهكما لاذعا . وقد اقترن بذلك كله عند الشدياق طول فى اللسان لم يستطع أن يغالبه ، وتراه يصرح به فى بداية عهده قائلا : (ولكن الفارياق فى هذا الوقت قد طال لسانه ، وان يكن فكره قد بقى قصيرا ...)

وبلغ من طول لسان الشدياق أنه هجا أحد أمراء الجبل من الدروز ، وكان حاكما ذا سلطان كبير ، فاضطر الأمير الى تملقه بصنع وليمة له ولأخيه ليشترى بذلك حمده وثناءه [1] .. ! وقد كان فى صاحبنا قدرة على أن يمدح الشخص أو الشىء ويذمه فى وقت واحد معا . فقد مدح باريس بقصــيدة ثم عاد فهجاها بقصيدة من الوزن والقافية نفسها ، وكان مطلع المدحة :

---

(١) الساق ــ ص ٣٦

أَذِى جَنَّة" فى الأرض أم هى باريس
ملائكة سكانها أم فرنسيس ؟
ومطلع الأهجية التى سماها « الهرفية » :
أَذِى عبقر فى الأرض أم هى باريس
زبانية سكانها أم فرنسيس ؟

وجرى فى الشوط هكذا الى آخر الأمد ... يقابل بيت المدح بيت من الذم يضاد المعنى الأول .. وقد يكون ذلك من علامات المقدرة عند الكاتب أو الشاعر ، ولكن الشدياق كان ذا طبيعة متغيرة ، وعاطفة متقلبة ، فليس يبعد أن يكون هذا من ذاك .

وما ظنك بكاتب مثل الشدياق لم يسلم من لسانه حتى نفسه وامرأته ؟ وهو لا يبالى أن يصرح أويشير الى بعض هنواته ويسوقها مساق الفكاهة الحلوة السائغة . فقد كان من عادته بعد زواجه من ابنة الصولى المصرية الشامية أن يستحلفها « بحق السطح » ولا يخجل أن يذكر لنا سر هذا السطح ، ففى ليلة زفافه الى عروسه بالقاهرة انسلّ من بين المدعوين وصعد الى سطح المنزل لكى يستريح ، وكانت الليلة مقمرة من ليالى الصيف وأخذوا يفتشون عنه ، فلما رأوه نائما على السطح ليلة زفافه (أخلوا له ولعروسه حجرة وهموا بالانصراف !)

وفكاهة الشدياق مرحة لطيفة ، ولكنها أحيانا تتصل بالمرأة وبالجنس أو تحمل وراءها أمورا جنسية فتعجب كيف تتغلب مسائل الجنس والمرأة على هذا العالم اللغوى الغارق فى كتب

الأدب واللغة والمعاجم ؟ ولن نسوق هنا بعض فكاهاته الجنسية فليس هذا بمجال يليق ايرادها فيه ... وحسبنا أن يطلع عليها القارىء ان أراد فى كتابه « الساق على الساق » فهو مشحون بها الى حد جعل مؤرخا فاضلا مثل جورجى زيدان يقول عنه : (انه أورد فى ذلك الكتاب ألفاظا وعبارات أراد بها المجون ، ولكنها تجاوزت حدوده ، حتى لا يتلوها أديب الا ود لو أنها لم تمر فى ذهن شيخنا ولا دونها فى كتابه ، تنزيها لأقلام الكتاب عما يخجل من قراءته الشاب فضلا عن العذراء ...)

وفكاهة الشدياق طبيعية غير مجتلبة ولا متكلفة ولا مصطنعة ، فلم يكن الرجل فيها صاحب صنعته ، وانما كان رجل فطرة .. ولم تفارقه روح الدعابة والمزح والمجون حتى بعد أن شاخ وهرم وجاء الى مصر سنة ١٨٨٦ محدودب الظهر . وهو يتفكه فى الكتابة حين يصف أو حين يستدرك أو حين يستطرد أو حين يوازن ويقارن أو حين يريد أن يتهكم . فتنتقل فى كتابته من سطر الى سطر وتشعر أنك فى جو كله فرح ومرح حتى فى أشد الأوقات وأعصبها ، فهو فى المرض فكه الروح ، حاضر النكتة ، سريع البديهة ، وهو كذلك فى أية شدة نزلت به ، يغالبها بالضحك عليها أو الضحك منها حتى تزول ... فقد أصيب بالتخمة يوما من أكلة برغل أخذها بحذافيرها ، فأصبح وبه غثيان ، ويصور لنا الطبيب الذى استدعى له ، والطبيب — كما يقول — رسول عزرائيل ! فمنعه من الحركة . وهنا يسخر من أطباء وقته وجهلهم فانهم (يعالجون الأمراض بالخرص

والتخمين ، فما يهتـــدون الى العلة والمعلول الا بعد أن تبلغ الروح الحلقوم ! فيجربون مرة دواء ومرة غيره !) وجاءه الطبيب (وهو أشد منى مرضا ونحولا ! فالظاهر أنه لم يكن له شغل حتى يخرجه من داره ! ـ يريد أنه طبيب لم يكن له زبائن !! ـ فلما أن دخل جس نبضى ، ونظر الى لسانى ، ثم زوى ما بين حاجبيه ، وأطرق الى الأرض ، وهو يهسّ ، أى يحدث نفسه ـ ثم رفع رأسه وقال لخادمى : هات الطست ! . قلت : ما تريد أن تفعل وأنا صاحب جثتى ! أفلا تشاورنى ؟ قال : انه الفصد أو الرمس !! قلت : هداك الله يا شيخ ! انها أكلة برغل مع اللحم مما تسميه الناس كبيبة ! قال : أنا أعرف ذلك ، أنا أعرف ! انكم يا أهل الشام كلكم تموتون بهذه الكبة !!) أرأيت صورة أفكه لوصف طبيب من هذه الصورة ، وخاصة حين يقول له : أنا صاحب جثتى أفلا تشاورنى ؟!

ويصور لنا الشدياق اقدامه على الزواج فى مصر حين سيطر عليه الوهم من أن يموت غريبا وعـــزبا ! وكان قد أصيب فيها بمرض ، فصمم أن لا يفارق الدنيا الا قرير العين بنجل يرثه ، وان لم يكن عنده من حطام الدنيـــا غير الكتب ! ولا تفوته النكتة فيقول : (كيف لا وقد جاء عن أبشـــلوم ولد سيدنا داود أنه بنى له جدارا ليذكر به بعد موته اذ لم يكن له خلف ... فلأتزوجن ! فان لم يأتنى خلف فالطوب بمصر كثير !!) نعم ! ان الطوب بمصر كثير فلا يكلفه أن يبنى له حائطا يذكر به بعد موته !!

ومن صوره الفكاهية تصويره لخبز الرهبان وصعوبة كسره حتى تتشظى منه الشظايا فى وجوه الآكلين ! ويقول فى ذلك : (ثم انه لمـــا حان وقت العشاء جاء ذلك الرويهب بصفحة من العدس المطبوخ بالزيت ، وبثلاثة أصنج من ذلك الخبز ، وجعلها بين يدى الفارياق . فجلس للعشاء وتناول رغيفا ودقه بالآخر حتى انكسر ! فلما التقم أول لقمة نشبت شظية من الخبز فى سنه وكادت أن تذهب بها ! فجعل يسندها ويسد موضع الخلل منها بالعدس !) .

ومن أجمل تعابيره الفكهة المراح تصويره لأسرة انجليزية من أسر رجال الدين فى مالطة وقد دعته ودعت غيره الى وليمة ، ولم تكن الأسرة على استعداد للدعوة ! وتأجلت الدعوة من الغداء الى العشـــاء بسبب ابطاء الزوج فى الحضـــور واصرار الضيوف على انتظار عودته ! وأخذت أجراس البيت تطن ايذانا بالاجتماع للطعام ، (ثم مضت ساعة وأعيد أطنان الجرس ، وما زالت الساعات تمضى حتى نجزت الساعة الحادية عشرة ! . وفى خلال ذلك كانت الأم تتفقد المطبخ وتسارُّ البنات كأنما نزل بهن نكبة البرامكة !) أرأيت تعبيرا أفكه ولا أمزح ولا أكثر لذعا من وصف هذا الحادث ، وتصوير نزول الضيوف واضطراب أصحاب البيت ، وتشبيه ذلك كله بنكبة البرامكة ؟

ولا تفوت الشـــدياق الفكاهة ولا السخرية الحلوة فى أى مكان . ففى خلال عودته الى لبنان فى أثناء خروج الحملة المصرية من الشام مر فى طريقه بالباخرة على يافا ، ودعاه نائب قنصل

انجلترة هناك وسقاهم الشراب المعروف « بالشربات » . ويصف الشدياق الشربات بأنه (اشتهر أيضا بهذا الاسم عند المؤلفين من الافرنج ، واستعملوه فى كتبهم ، لا فى ديارهم !)

ومن لطائف فكاهاته فى التعبير ما ذكره حين زار مدينة مانشستر ، ففيها تعارف الى عربى اسمه « عبد الله الأدلبى » ولم يكن سبب التعارف الا أن كلا منهما يضع على رأسه طربوشا أحمر . ولكن الشدياق يعبر بعبارته الفكهة قائلا : (... وفيها تعرفت بالفاضل الكريم عبد الله افندى الأدلبى ، قنصل الدولة العلية ، ولم يكن لتعارفنا من سبب سوى حمرة رأسينا ! فانه أول ما رأى طربوشى أقبل الىّ مبتسما باشاً !)

وحينما غادر مالطة الى فرنسا المشهورة بغنتها فى النطق ، وبفتنتها فى النساء ، وبمصارفها فى النفقة عبر عن ذلك على طريقته الفكاهية قائلا : (ثم تأهبت للسفر الى باريس ، وأعددت خيشومى للغنة ، وخلدى للفتنة ، ودريهماتى للمحنة !!)

وحين يتحدث عن القضاء فى انجلترة وطول الزمن الذى يقضى فى الدعوى حتى ينتهى الفصل فى القضية لا يفوته أن يعرج على الشرائع وطول أحكامها ، والعربية واتساع أبوابها ، فيغمزها جميعا بهذه الغمزة اللطيفة الذكية : (واعلم أن شرع الانكليز هو أطول الشرائع أحكاما ، وأكثرها قيلا وقالا ، وأوسع من علم العربية قلبا واعلالا ! فان بعض الدعاوى التى تستدعى دهاء الفقهاء ومحالهم ربما يدوم خمسين سنة فأكثر ...)

ويلاحظ الشدياق فى مصر قلة الحفول بمراسم الدعوة ،

فللضيف أن يستصحب معه من يشاء ولو لم يكونوا مدعوين . وهو يصور لنا هذه الصورة بريشته الفكهة المرحة قائلا : (قال له الفارياق : ولكن لعل فى الازواء ـــ أى استصحاب رجل آخر غير مدعو ـــ اساءة أدب فى حق المزور ! فان المدعو لا يليق به أن يستصحب أحدا معه ! قال : لا بأس ! فان هذه عادة الافرنج ! فأما فى مصر فيمكن للمدعو أن يستصحب أياً شاء .. وللمستصحب أيضا اذا لقى واحدا فى الطريق من معارفه أن يستصحبه ، ولهذا أيضا أن يستصحب آخر ! وللآخر آخر !! حتى يصيروا سلسلة أصحاب ، بحيث لا يكون فى السلسلة حلقة أنثوية !!) [1]

ومن صوره الفكهة ما صور به الكتابة المتداخلة الدقيقة للأقباط فى مصر ، فقد اشتهرت خطوطهم بهذا حتى صارت مضرب المثل فى صعوبة القراءة . ولكن الشدياق يصورها على طريقته بقوله : (ولهم حروف كحروفنا هذه ، الا أنها لا تقرأ الا اذا أدخلها الانسان فى عينه !)

واذا كان رجال الجمارك فى كل بلد مشهورين بالمضايقة وخنق الأنفاس واضاقة الصدور بأفعالهم وتدقيقاتهم مع المسافرين والرحالين ، فان الشدياق يتلقى هذا كله ببساطة ويستقبله بخفة روح،ويصرفه بفكاهة حلوة . ويصور لنا المكاسين ـــ رجال الجمرك ـــ فى مرسيليا وقد فتشوا صندوقه فوجدوا

---

(١) الساق على الساق ـــ ص ٥٣ من الكتاب الثانى .

فيه كراريس ! فظن أنهم يريدون تفتيش الكراريس ليعلموا ما هو مكتوب فيها ! فيقول لهم : أنا ما هجوت سلطانكم ، ولا مطرانكم ! فلم تفتشون فى كراريسى ؟! — ولاحظ هنا الغمز برجال الحكم ورجال الدين فى لبنان وأثر ذلك الباقى فى نفسه — وبالطبع لم يفهم كلامه واحد منهم ولا فهم هو كلامهم ، لأنه حتى ذلك الحين لم يكن أخذ يتعلم الفرنسية — فلما فرغوا من تفتيش الصندوق وأشاروا عليه باقفاله (انبرى واحد منهم يمسح بيديه على جنبيه — أى جنب الشدياق — فظن أنه يتمسح به ، أى يتبرك ! ، لكونه وجد كراريسه بخط غريب ! — وهو الخط العربى ، لكنه علم من بعد ذلك أنهم كانوا يفتشونه ليعلموا هل كان مدخرا — أى مخفيا — شيئا من التبغ والمسكر !!) [1]

قلت لك ان الشدياق لم تفته النكتة ولا الفكاهة فى أى موضع فهى طبع فيه ، وقد ملأ رحلتيه الى مالطة وأوربا بالفكاهات والنكات الحلوة ، بل باللذعات والسخرية أكثر الأحيان وخاصة فى « الساق على الساق » . وها هو ذا فى انجلترة — أو فى كمبردج بالذات — يدعوه أحد الوجوه الى تناول الشاى معه — ويظهر أن غرابة طربوشه الأحمر كانت السبب فى هذه الدعوة ! وندع الشدياق يعبر عنها بعبارته الفكهة الساخرة قائلا : (وقد أدبنى — أو أدب طربوشى — أحد الوجوه فى كمبردج الى أن أشرب الشاى معه ، فقال : هل لك

---

(١) وللشدياق حادث آخر مع أحد رجال الجمارك فارجع اليه فى الساق — ص ٣٢٧

فى أن تشرب الشـاى معنا فى احـدى الليالى ولكن بعد ثلاثة أسابيع ! قلت : نعم ! حتى اذا سرت اليه لم أجد على المائدة غير الصنف المعتاد منه ! مع أنى كنت أظن أن توقيت تلك المدة انما كانت لجلبه من بعض البلاد !!) أرأيت فكاهة ولذعا أكثر من هذا لرجل دعاه الى الشاى ؟ ويظهر أن الداعى يستحق كل هذا من صاحبنا ، فلماذا أطال أمد الدعوة الى ثلاثة أسابيع كأنه سيستحضر خلالها صنفا جيدا ممتازا من الشاى ويجتلبه من منابته !!

وقلت لك ان فكاهة الشدياق وروح المرح والمزح فى تعبيره وأسلوبه قد جرته أحيانا كثيرة الى اللذع والسخرية والتهكم . ولا بأس أن نسوق هنا من هذا ما يكفى للاستشهاد فى القضية . وسـخريته من الطبيب الذى جىء به الى علاجه هى من أول الأمثلة التى تحضرنا على هذا . كما كانت سخريته من علماء النحو والبيان ورجال الأديان لا تفـوته فى أى مكان . ومع سخريته من النحاة فانه يحمد الله على أنه أتقنه وجوّده وأفاد منه فائدة عظيمة ... وهو (ممنون لبنت أبى الأسود الدؤلى أبد الدهر فانها هى التى كانت سببا فى استنباطه .. !)

وما أشد سخرية الشدياق بقضايا النحو ومسائله ومشاكله التى لا تنتهى ، فيقول عنها : (طالما كان يخامرنى الريب فى قضية خلود النفس ، فكنت أميل الى ما قالته الفلاسـفة من أنه كل ما كان له ابتداء فهو متناه . فلما رأيت النحو له ابتداء وليس له انتهاء قست النفس عليه !)

أما كبر العمائم — وخاصة فى لبنان — فلم يسلم من لذعات الشدياق وسخرياته القاتلة ! فقد وقته —وهو فى أول الشباب— عمامته الكبيرة من شجة كادت تصيبه فى رأسه ، فمن يومها عرف أن لكبر العمامة فضلا ومزية ! وظن من يومها أيضا أن كبر العمامة انما هو لوقاية الرءوس فقط لا لتحسين الوجوه وتزيينها ! فان العمامة الضخمة تخفى محاسن الوجه ، وتشوه الوجه الصغير ، فضلا عن كونها توجع الرأس ، وتمنع صعود الأبخرة من مسامه ... ثم يمضى فى تناول الموضوع على طريقته الساخرة قائلا : (فان قيل اذا كان سبب اتخاذ العمائم الكبيرة انما هو لوقاية الرءوس لا للزينة والتحسين ، فما بال الذين يرقدون ليلا يتعممون ؟ فهل يخافون أن تتدحرج رءوسهم عن مصادغهم ، فيسقطوا فى مهواة فى بيتهم ؟! مع أن فرشهم تكون على الأرض ؟ !)

ولا ندرى — على وجه اليقين — سر العداوة التى كانت بين الشدياق وبين « القاموس المحيط » للفيروز آبادى ، وان كان أحد مترجميه [1] يعزوها الى ما كان بينه وبين البستانى صاحب « محيط المحيط » من خصومة شديدة .. ومع أن « القاموس المحيط » كان يلازم الشدياق فى أسفاره وفى حله وترحاله ، فانها كانت ملازمة المتتبع المتعقب الباحث عن مآخذ ، وان كان قد أفاد منه كثيرا ، بل حفظه كله عن ظهر قلب . ولم يمنعه ذلك

(١) صقر لبنان — لمارون عبود ص ١٤٢

من نقده فى كتابه المشهور « الجاسوس على القاموس » . وقد استصحبه معه فى مالطة ، وفى انجلترة وفرنسا ، وكان مشغولا دائما بحمله ...

ومن سخرياته بالقاموس المحيط أنه التبست عليه فى الجبل لفظة نقام ــ وهو ضيف فى أحد الأديرة ــ يطلب القاموس ، (فطرق باب جاره ــ وكان من المتحمسين فى الدين . فقال له : هل عندك يا سيدى القاموس ؟ قال : ما عندنا بالدير جاموس ! بل ثيران ــ ولا تنس هنا هذه الغمزة اللاذعة لرجال الأديرة ــ فما حاجتك به الآن . فطرق باب آخر ــ وكان أشد منه خشونة ــ فقال له : هل لك فى أن تعيرنى القاموس ساعة ؟ قال : اصبر علىّ الى نصف الليل فان الكابوس لا يأتينى الا فى هذا الوقت ! فمضى الى غيره وأعاد عليه السؤال . فقال له : أى شىء هو هذا القاموص يا ماغوص ؟!!)[1]

وكثير من مواضعات المجتمع الاجتماعية لم يكن الشدياق عنها راضيا ، فالنفاق الاجتماعى لم يعجبه وكثيرا ما حمل عليه هنا وفى الغرب ، وبخاصة انجلترة ، حيث يظهر نفاق المجتمع ونفاق المرأة الانجليزية على أشده .

ولم يكن كثير احسان الظن بالمرأة على الرغم من أنه كان من الأصوات العربية الأولى الداعية لتعليمها وتحريرها . وهى ــ عنده ــ السر وأول الأسباب فى عمران الكون وخرابه ...

---

(١) الساق على الساق ــ ص ٥٨ ــ الكتاب الأول .

(اذ لا يكاد يحدث فى العام خطب جليل ، الا وتراها من خلله ، واقفة وراءه ، أو بالحرى مضطجعة !) ولا تنس هنا هذه الكناية الماكرة من رجل كان خبيرا بالنساء وكان مغرما بهن ، لهجا بذكرهن والحديث عنهن ، حتى كان ريقه يجرى اذا رأى امرأة سائرة ، ويقول فى ذلك :

أرى للنساء الماشيات حلاوة
فهل هن حلوات كذا فى المقاصير ؟!

ويعلل الشدياق السبب فى عدم صلاحية النساء لمناصب البابا والمطران ورئيس الجيش ، ورئيس السفينة ، والقاضى بأن ذلك لاتقاء بأسهن وسطوتهن ، فان الرجال مستعبدون — بفتح الباء — للنساء بالطبع وهن خاليات من هذه المناصب ، فكيف يكون الأمر اذا ولينها ؟!

ومما سخر الشدياق منه فى أسفاره للغرب ذلك الهوس الدينى الذى يفصل بين العفة والدين . فقد تكون المرأة الساقطة ساقطة مع حرصها على التدين . ولم يفته أن يشير الى أولئك النساء الخواطىء فى جزيرة مالطة اللائى يغطين التماثيل والصور الدينية فى أثناء ممارستهن للخطيئة ! وهو مشهد لم يفت من قبله الفيلسوف الروسى تولستوى حيث وصفه فى روايته « البعث » ، ويعبر الشدياق عن هذا المشهد فى كتابه « الواسطة » قائلا عن نسائها : (وحين يأتين الفاحشة يغطين وجوه صور القديسين التى فى حجرهن ، أو يقلبنها تأدبا

وتورعا .. !) وعاد الى الموضوع نفسه يعالجه فى كتابه « الساق على الساق » بطريقة أخرى وبتعليل آخر [1]

وعلى الرغم مما حظى به الشدياق من رتب وألقاب ونياشين من رؤساء الشرق والغرب ، فانه قد وجه اليها سهام نقداته وسخرياته ، ويستوى فى ذلك الألقاب الدينية والمدنية . وقد أدهشه — فى عصره — استعمال ألقاب المعلم ، والشيخ ، والخواجا فى مصر فتناولها بسخريته المعهودة . وهو يرى فى الألقاب ضررا ، فهى تقعد بهمة صاحبها وتنتهى به عند بلوغها فلا يحرك عزائمه الى غاية أبعد .. ونتركه هنا لنص عبارته اذ يقول : (ان المتصف بها يعتقد بمجامع قلبه أنه أفضل من غيره خلقا وخلقا ، فينظر اليه نظر ذى القرن الى الأجم ! ويستكفى بهذه السمة الظاهرة عن ادراك المناقب المحمودة ، والمزايا الباطنة ، ويخلد بها الى البلادة واللذات الموبقة ..)

ومن سخرياته اللاذعة ما ذكره حين بلغه أن أهل جزيرة مالطة يعجنون عجين الخبز هناك بأرجلهم لا بأيديهم ! ولو أنه كان يعجن بأرجل النساء فما ندرى ماذا يكون موقف الشدياق منه ؟! ولكنه على كل حال سخر من ذلك كله بطريقته القاتلة قائلا : (ثم انه بلغه أن خبز المدينة يعجن بالأرجل ، ولكن بأرجل الرجال ، لا النساء ! فجعل يقلل منه ما أمكن ، حتى أضر به الهزال ! وصدئت أضراسه من قلة الاستعمال ! ، فوقع منها

---

(١) الساق على الساق — ص ٢٨ من الكتاب الثانى .

اثنان ، من كل جانب واحد . وهذا أول انصاف فعله الجوع على وجه الأرض ! اذ لو كانا وقعا من جانب واحد لثقل أحد الجانبين وخف الآخر ، فلم تحصل الموازنة فى حركات الجسم !!) [1]

هذا هو الشدياق فى فكاهته ودعابته ، وفى سخريته وتهكمه ، وفى احماضه وتنقله ما بين الجد والهزل ، وفى أدبه المكشوف الذى عبر فيه عن كثير مما يتحرج منه اللسان والأذن ، وقد زاد الاحماض عنده حتى استحال الى نوع من المجون عابه عليه الناقدون ، وأخذه عليه المحافظون . وقد أحس الرجل من نفسه هذا ، فالتمس لنفسه العذر حينا بأنه ذكر ألفاظ الجنس وما يدور حوله ليظهر قدرة اللغة العربية واستيعاب معجمها الواسع لمثل هذه الأغراض ! وليشوق القراء الذين يحبسون أنفسهم بين جدران بيوتهم المملوءة بقصب لتدخين الى اقتناء كتاب فى اللغة ! وهو عذر ليس له ما يسوغه أو ينهض به . ومما قاله فى هذا الصدد : (وربما قال قائل هنا : انك أيها المؤلف قد عبت على الناس جهلهم أنفسهم ، وقد أراك جهلت نفسك فى هذا الفصل ــ يقصد الفصل التاسع عشر من الكتاب الثالث من الساق على الساق ــ فأوردت فيه كلاما لا يليق بالنساء ، فقد تجاوزت ابن أبى عتيق وابن حجاج . قلت : الحامل على ذلك أمران : أحدهما ابراز محاسن لغتنا هذه

---

(١) الساق على الساق ــ ص ٢٧ ــ الكتاب الثانى .

الشريفة . والثانى أنى قصدت تشويق القارئين ممن ملأوا حيطان ديارهم من قصب التبغ الى شراء كتاب فى اللغة ..)

والحق أنه لم يكن هناك معنى لأن يعتذر الشدياق من مجون ذلك الفصل وحده ، ففصول الكتاب كلها فيهـا ما هو أشنع وأفظع . فالفصل السابع عشر من الكتاب الرابع وعنوانه « فى وصف باريس » فيه من الافحاش والأدب المكشـوف الذى لا حياء فيه ، ما ليس له نظير حتى فى كتب الاثارة الجنسـية ومجلاتها المعروفة ! وانى لأعجب للشيخ فارس الشدياق كيف انحدر هذا المنحدر . وحسبى أن أحيل القارىء الى ذلك الفصل من الكتاب ليستيقن أننا لم نتجن على الرجل !

وليس الدفاع عن الشدياق من المغالين فى حبه ، بدافع عنه هذه المزلة التى لم تكن تليق بمثله ، مع اشتغاله بالجد فى الأدب واللغة والنحـو والكتابة والصحافة الرائدة . ولا أجد سببا سليما يسوغ للأستاذ مارون عبود أن يدافع عنه فى هذه الزلة بقوله : (سألنى ويسألنى كثيرون ماذا عند أحمد فارس حتى تطنب فى الثناء عليه هذا الاطناب ، وتنادى به أبا وزعيما للنهضة فجوابى الى هؤلاء كلهم : طالعوا كتب أحمد فارس فهى لا تقرأ من عنوانها . ان فى كتب الشـدياق لأدبا وعلما وسياسـة . ويقولون لى : والاحماض ؟ فأهز برأسى وأعجب من هؤلاء ، وفيهم من يدعى سعة الاطلاع ، فكأنهم لم يقرأوا من كتب أدباء العرب غير مختاراتها ، فلو قرءوها كلها لعلموا أن أحماض أحمد

فارس أقل جدا من التى عند المؤلفين العرب)[1] وتقول لمارون عبود ـــ غفر الله له . ان الذنوب لا تبرر بأمثالها ، وأن وقوع الخطأ من انسان لا يسوغ لغيره أن يقع فيه . ولقد ظل مارون عبود يكرر هذه النغمة فى طنبوره ، فأعادها فى كتابه « رواد النهضة الحديثة »[2] .

وليس ما فعله مارون عبود من تبرير مجون الشدياق بمجون غيره من العرب ، الا من قبيل ما فعله الشدياق نفسه من تبرير المجون عند طائفة من الشخصيات الأوربية والعربية المعروفة ، ولعله تنبه فيه الشعور بالاثم فحاول الاعتذار عنه فى غير موضع من كتابه ، فهو فى الفصل الحادى عشر من الكتاب الرابع وعنوانه « فى ترجمة ونصيحة » يصور لنا مناقشـــة دارت بينه وبين الفارياقية ـــ يريد زوجته ـــ فيقص عليها أنباء الماجنين من كبار الرجال ويقول فيما يقول : (هذا « سويفت » ، مع أنه كان فى درجة هى دون درجة الأسقف ، فقد ألف مقـــالة طويلة فى الاست ! وكذا « استورن » فانه كان قسيسا وألف فى المجون ، فأما « جون كليلاند » فانه ألف كتابا فى أخبار فاجرة اسمها « فَنى هل » جاء فيه من الفحش والمجون بما فاق به ابن حجاج ، وابن أبى عتيق ، وابن صريع الدلاء ـــ كذا ـــ ومؤلف كتاب ألف ليلة وليلة . وأول من نهج طريقة المجون فيما أظن كان « ربلى » الفرنساوى المشهور وهو أيضا من أهل الكنيسة) .

---

(١) جدد وقدماء ـــ لمارون عبود ـــ ص ١٥٨

(٢) انظر ص ١٦٠ من كتاب رواد النهضة الحديثة لمارون عبود .

وهكذا ترى أن سبيل الشدياق فى الدفاع عن نفسه هى السبيل التى سار فيها مارون عبـود للدفاع عن مجونه دفاعا لا ينهض به سبب صحيح ، ولا رأى رجيح .

وقد تحرج كثير من العلماء والأدباء وكتاب السـير من تناول موضوع « المجون » عند فارس الشـدياق فى كتاباته جميعا ، وفى « الساق على الساق » بصفة خاصة . وتنـاوله المتناولون تبعا لاختلاف أهوائهم ، وطبائع نفوسهم ، واتجاهات عواطفهم . فجورجى زيدان يقرر أن عبارات مجونه تجاوزت الحدود ، حتى لا يقرأها أديب الا ود لو أنها لم تخطر بذهن الشيخ ولا جرت على قلمه[1] .

ودائرة المعارف للبستانى ــ على ما كان بينهما من معارك وخصومات ــ تقول : (ولولا افاضـته فى فاحش المجون ، وتصلبه فى تعزيز الوجهة التى يوجه اليها قلمه ، لقلنا انه الامام الذى يرجع اليه ، والمثال الذى لا يعول الا عليـه) ، والأب لويس شيخو يقول عن كتابه الفارياق : (انه لم يرع فيـه جانب الأدب)[2]

والكونت فيليب طرازى يمر باسم الكتاب مرا فلا يصفه بأكثر من أنه (طبع فى باريز) ولا يزيد على هذا شيئا . وأحمد حسن الزيات يقول : (وقد يؤخذ على المؤلف ــ يعنى الشدياق ــ جـرأته على الأدب ، وتطـرفه فى المجون ، واستعماله من

---

(١) تراجم مشاهير الشرق ج ٢ ص ٩٠

(٢) الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ج ٢ ص ٨٧

الألفاظ ما لا يصدر منه عن مثله ، ولا يليق بفضله)[1] .
والأستاذ أنيس المقدسى يقول فيه : (قد ترى فى بعض تهكمه وانتقاداته ما يستهويك من فن ودقة ملاحظة وطلاقة فى الحديث ، ولكنك لا تتمالك عن الاشمئزاز من اسفافه فى الكثير من فصوله ، حتى لقد تقف مذهولا أمام هذه الظاهرة الأدبية التى ينحط فيها الكلام الى درجة المجون الرخيص)[2] ، ومؤلفو كتاب « المفصل » الذى أصدرته وزارة المعارف بمصر يقولون : (له مؤلفات جمة من أهمها الفارياق — يريدون كتاب الساق على الساق ، فيما هو الفارياق — أجراه على أسلوب فكاهى بديع لم يسبق اليه فى العربية ، لولا اسفافه أحيانا الى ألوان من المجون لا تحمد من مثله ...) ويقول عنه الأب حنا الفاخورى انه ذكر فيه (احماضا قبيحا ، وبذاءات تشوه الكثير من صفحات الكتاب ...)[3] ، على حين يصفه المرحوم حسن السندوبى بأنه (كتاب من أجل الكتب وأمتعها ، جمع بشر اللهو الى عبوس الجد ... وأغرب فيه وأطرب ، وذهب فى ابداعه كل مذهب ، لم يتبع فيه سابقا ، ولن يبلغ شأوه فيه لاحق ...)[4] .

---

(١) تاريخ الأدب العربى — لأحمد حسن الزيات .
(٢) الفنون الأدبية وأعلامها — ص ١٥٢
(٣) تاريخ الأدب العربى لحنا الفاخورى — ص ١٠٣٠ .
(٤) أعيان البيان — ص ١١٦

من هذا ترى أن مجون الشدياق واحماضه وأدبه المكشوف واهتمامات الجنس ومثاراتها عند المرأة هى التى قللت من القيمة الخلقية لكتاب « الفارياق » . وما كنا ننتظر من الشدياق أن يكون واعظا ، فذلك أبعد الظنون عن مثله ، ولكنا كنا نرجو ألا ينزلق فى كتابه وفى مجونياته هذا المنزلق الذى لا يليــق صدوره من مثله ...

على أننا نكلف الشدياق شططا اذا أردناه على غير ما فى طبعه . لقد كان الرجل يحب الضحك والمجون واطراح التكلف والتزمت فى كتاباته وفى مجالس سمره ، لأنه كان يرى أن محاولة ستر الطبيعة المطلقة بالحياء هى أخت النفــاق ... ولعل بيتيه الآتيين يصوران لنا طبيعته الماجنة :

ما زارنى الا خليــع ماجن
فدع الحياء اذا حضرت حصيرى[1]

ان الحياء أخو النفاق وما صفت
دون المجون سريرة لعشــير ... !

ولعل الشدياق نفسه أدرك ما فى كتابه « الفارياق » من هفوات ، فساق فى آخر صفحة منه اعتذارا ماجنا لاذعا ساخرا باللغة العامية الممزوجة بعامية لبنان ، وحسبنا أن نشير هنا اليه ، فما فى المقام متسع للاستشهاد به ...

(١) الساق على الساق ص ٤١١

الشدياق الشاعر

للشدياق رأى فى الشعر العربى فى عصره أشرنا اليه فى فصل سابق من هذا الكتاب ، فهو لم يحسن الظن به ، ورآه وقفا على غرضين : المدح وما يتبعه ، والغـزل والنسيب وما يدخل فى اطارهما . ويعترف لنا فى « الفارياق » بأنه كان منذ صباه . أو حداثته ــ يتهافت على النظم من قبل أن يتعلم شيئا مما يلزم لهذه الصنعة ، فكان مرة يصيب ومرة يخطىء ــ كما يقول ــ مع اعتقاده أن الشعراء أفضل الناس ، وأن الشعر أجل ما يتعاطاه الانسـان .

ولم يسكت شاعرنا عن تعهد ذلك الميل الشعرى الذى ظهر فيه ، فاستمر فى نظم الشعر على طريقة شعراء عصره وهى طريقة القدماء المقلدين . ولم يسلم صاحبنا من الاستجابة للمناسبات يدبج فيها القصائد ، فله شعر قاله فى لبنان قبل مجيئه الى مصر ، وله شعر فى مصر ، كما أن رحلتيه الى مالطة وأوربا قد وسعتا أمامه مجال النظم .

وعلى الرغم من رأى الشدياق فى شعر المناسبات وحملته على شعرائها فانه قد وقع فيما كان ينتقده ، وجرفه تيار المناسبات فمضى فيه الى غاية مدح فيها السلاطين والملوك وبالغ فى مدحهم وغالى على الطريقة التى كان يعيبها فى شعر المديح .. واذا كان

الشدياق يملى لنا مدائحه الشعرية لنابليون الثـالث امبراطور فرنسا ، وفكتوريا ملكة انجلترة بأنها لم تكن غير عدوى من الشعراء الذين يحمدون دواوينهم بقولهم : وقال يمدح الملك . وقال يمدح الأمير فان هناك دافعا نفسيا آخر حمل صاحبنا على سلوك هذه الجادة ؛ لقد كان الشدياق مغامرا بعيد المطامع شاسع الطموح . وكان فى طبيعته ميل الى التقرب الى العظماء لينال عندهم الجاه . فهو لم يكن فى مدائحه لهم مقلدا للقدماء فقط ، ولكنه كان صاحب أهداف ، وقاصد غاية . وقد شاء الله أن يكشفه أو يكشف هو لنا نفسه حين يقول فى « كشف المخبأ » : (.. فانى كنت نظمت قصيدة فى و . باشا سفير الدولة العلية فى باريس ، وأخرى فى ن . باشا ، وأخرى فى آخر ، ولم تنتج احداها سلبا ولا ايجابا ، بل ضاعت الأوليان ، وأضاعا على كراسين من ديوانى ، ذهبت كل منهما بالكراس الذى اشتمل عليه ...) فماذا كان ينتظر أن تنتجه هذه القصائد ؟ انه لم يكن يروض القول على شعر المديح ـــ كما يزعم بعض المادحين ـــ ولم يكن يقلد الشعراء الذين يوشون دواوينهم بقولهم : وقال يمدح الملك ... ولكنه كان يأمل « نتيجة » من هذه المدائح .

ولقد حمل الشدياق على شعراء المناسبات بما يُحمد معه أن نقول فيه انه كان أول من نبه الى سخافة هذا اللون من الشعر فى النهضة الحديثة . فقد سبق أصحاب حركة البعث الشعرى والاحياء والتجديد الى ريادة هذه الحملة ، ولكنه ـــ مع الأسف ـــ علم غيره ونسى أن يعلم نفسه ، ففاته التطبيق العملى على

ما نادى به . وكلامه عن شعراء المناسبات جدير بأن يقتبس هنا فقد كان شيئا جديدا وجريئا بالنسبة الى النصف الأول من القرن الماضي حيث يقول : (ومن كان قد قرأ بعض أشعار ، وسمع من أهل العلم مثلا أن الشعر منقبة سنية ، تصدى الى أى نظم كان ، فاذا رأى طائرا فى الجو ، نظم فيه قصيدة ! واذا تزوج أحد فى بلده نظم فيه تواريخ ، واذا توفى أحد قال : قد غاض بحر الكرم ، ودكت أركان المعالى ، وذوت رياض الفضائل ، وأفل نجم الهدى ، وخسف بدر المجد ، وكسفت شمس الفضل ، ثم لا يزال يطلع فى عاجلة النبى الياس حتى يصل الى الفلك الأثير ، ويعدد جميع ما هنالك من النجوم ، وينتزع منها كفنا لمرثيه ...!)[1] .

ولقد كان للشدياق شعر ينتقد به الحياة والمجتمع فى أثناء رحلتيه ، وكان يكتفى فيه بالبيت أو البيتين يقولهما على سبيل اللذعة العابرة ، أو التعليق ، أو التظرف . كقوله يصف أهل مالطة بالشراهة فى المآدب والبخل بالدعوات :

لئام اذا ما زرتهم فى بيوتهم
كرام اذا زاروك ما أمكن اللحس !

ولو وسعت أفواههم غير ما بها
لكان لكل بين أنيابه فأس !

وقوله مرة أخرى يصف بخلهم فى بيوتهم :

---

(١) كشف المخبا ــ لفارس الشدياق ــ ص ١٦٦

اذا زرت أرحبهم دارة   توهّم غـولا قد اغتالها !
يغلّـق أبوابه ان نوى   فطورا ، ويُحكم اقفالها !

وقوله يصف لغة أهل مالطة وهى أخلاط من العربية والايطالية :

تبـاً لها ! لغة" بغير قـراءة   وكتـابة عـين" بلا انسـان
تتبلبل الألبـاب فى تركيبهـا   ويكل عنها حـد كل لسان
أذنابهـا ورءوسـها عربيـة   فسدت،وأوسطها من الطليانى!

وهذه النماذج السابقة تسوقنا الى الحديث عن الهجاء فى شعر الشدياق ، وكان الرجل بارعا فيه حتى لا يكاد شاعر فى عصره أن يجاريه ، وذلك طبيعى ! فان الرجل الذى كان طويل اللسان فى كتابته ليس بمستغرب عليه أن يطول لسانه فى الهجاء بالشعر . وقد امتد طول لسانه حتى أصاب رائدا آخر من رواد النهضة فى عصره هو المعلم بطرس البستانى صاحب دائرة المعارف ، ومجلة الجنان ، ومترجم كتاب « سياحة المسيحى » ، فقال فيه :

كابدت من زمنى كوارث جمـة
وأمرُّها فى مـرها ثنتـان :
لغة «الجنان» اذا هذت فى مدح قا
رىء لغوها ، وسـياحة النصرانى !

ولم يكن البستانى وحده هو الضحية للسان فارس الشدياق ، فقد تعرض الكاتب المفكر الحر أديب اسحاق لهجاء صاحبنا حيث يقول له بعد ما كان يعجب به ويثنى عليه :

لو أن آدم عـالم فى أنـه
ستكون من أبنـائه فيمـا غـبر
لأباح حـوءا بالطـلاق ثلاثة
وأبى ـ لأجلك ـ أن يكون أبا البشر!!

ولكن أديب أسحاق لم يسكت على هجائه ، فغمزه فى تغيير مذهبه المارونى أولا ، وتغيير دينه الى الاسلام ثانيا :

عجبا هجوت وكنت قبـلا مادحى
لابدع قبلى قد خدعت محمدا
ومكرت فى عيسى ، وخنت أباك فى
لقب أخذت ، ولم يكن لك أحمدا !

وكان الشدياق لا يطيق أن يتعرض أحد لنقده مهما كان مركزه ، فلا يشـفيه من ذلك الا الهجاء . وقد انتقد المطران أثناسيوس التوتنجى تعريبه لكتاب الصلوات والعقائد بأن عبارته اسلامية لا تناسب أهل الكنيسة ، وأباح لنفسه أن يغير ويبدل فى ترجمة الشدياق حتى يوهم القوم أنه قد أصلح فاسده ، وقوم معوجه ! فغضب الشدياق وهجاه بقصيدة صدر بها رسالة فى الرد عليه . ومن أبياتها :

أكل طـويل اللحية اليـوم عالم
وكل مشـير بالبنـان مناظر ؟
وكل أمرىء يبرى البـراعة كاتب
وكل فتى يحوى الدفاتر شاعر ؟

أفى كل دهـر يهضـم الحق هاضم

وفى كل عصر يكفر الفضل كافر ؟

وفى كل وقت يخـذل العلم خاذل

وفى كل جيل ينصر الجهـل ناصر ؟

ألم يخل يوم عن حسـود ومفتر

يطاول أرباب العـلا وهو قاصر ؟

أما مدائح الشـدياق فكثيرة ، وفى أكثرها تفاهة وركاكة واغراق فى المدح ، وتعميم فى صفات الممدوح بما يشترك فيه مع غيره ، واغراب فى الألفاظ بما لا يطابق مقام المدح ، حتى كأنه — كعـادته — يدل بثروته اللغوية ... وقد فطـن الى ذلك المستشرق الفرنسي دلاجرانج — وكان كبير المستشرقين ورئيس التراجمة فى قصر امبراطور فرنسا — ونبهه الى ما فى القصيدة الدالية من عيوب قائلا له مواجهة : (ليس من هذه الصفات التى نسبتها الى الملك ما هو مختص به وحده ، فانه يصلح لأن يخاطب به أي ملك كان . وهي مع ذلك عويصة لا يمكن ترجمتها ... ولو قدمتها كما هى — أى بدون ترجمة — لما استحسن الملك منها غير الخط والشكل فقط !!) ، وقد كان هذا النقد كفيلا بأن يرد الشـدياق الى صـوابه ، ولكنه مع علمه بمـا فى شعر المناسبات والمدح من ضعف ، وما فى مبالغات الشـعراء من سخف ، فانه لم يستطع أن يقاوم نزوعه الى التقليد والمحاكاة والاغراق والتكلف فى خلع الصفات على الممدوح . وقد استدرك هو نفسه ذلك فقال : (كما أن الأفرنج ينكرون علينا هذه العادة

ـ أى افتتاح المدائح بالغزل ـ كذلك ينكرون المبالغة فى وصفه الممدوح.. وأما تشبيهه بالبحر والسحاب والأسد والطود والبدر والسيف فذلك عندهم من التشبيه المبتذل ، ولا يعرضون له بالكرم ، وبأن عطاياه تصل الى البعيد فضلا عن القريب ... ومع علمى بهذه الحال لم يمكنّى مقاومة نزعة النهمة العربية الى تقديم القصيدة المذكورة ...) [1].

ولعل القارىء متشوق الى أن يرى مثالا من هذه الدالية ، فليصبر معنا على قوله فيها :

للويس نابيون حق السؤدد والملك اذ هو فى المعالى أوحد
فلتقدم الأملاك داعية له بالتهنئات ، وشأنه فليحمدوا

وقد جرى الشدياق فى القصيدة كلها على هذه التفاهة والركاكة والهذر الذى كان المستشرق لاجرانج على حق كبير فى نقده ... !

ولم تكن اللامية التى مدح بها الملك لويس نابليون قبل أن يصير امبراطورا أحسن حالا من هذه الدالية ! واليك نموذجا منها :

من ذا الذى ليس يثنى فى الأنام على
من فى المكارم والمجد السنى علا ؟
وليت شعرى هل فى الكون من لغة
تحوى كلاما يوفى حق ما فعلا ؟ !

---

(١) كشف المخبأ عن فنون أوربا ـ ص ٢٨٣

لله يـوم به مادت عسـاكره
من حوله كجبـال تنبت الأسلا !
كأنه البـدر قد حفت كواكبه
به ، ومامن سها من بينهم ضؤلا ..![1]

ولا تظن أن فى مدائح الشدياق ما كان خيرا من هذا الذى قاله فى لويس نابليون ، فقصائده فى مدح السلطان العثمانى ، وقصيدته " زارت سعاد فى مدح باى تونس ، ومدحه لابن الصدر الأعظم فى تركيا كلها ركيكة متهافتة ــ أما قصيدته الرائية فى مدح المجاهد الجزائرى الأمير عبد القادر فقد أطال الغزل فى افتتاحها اطالة مملة ، ولما خلص الى مدح ممدوحه توصل اليه بلطف قائلا لمحبوبه المتوهم :

أما أنا فكما علمت على النـوى
والقـرب صب فيك غير مغاير
شيئان لست أطيق صبرا عنهما
ذكرى هواك ، ومدح عبد القادر[1]

ولما مضى فى وصف الممدوح المجاهد كانت ألفاظه وعبارات مدحه سائرة عادية تقليدية مما يركبه كل ناظم ، كقوله :

هو ذلك الشهم الذى شـهدت له
كل البرية بالفعـال الفـاخر

---

(١) كشف المخبا ــ ص ٢٨٠
(٢) الساق على الساق ــ ٤٠١

ومنـاقب محمـودة ، وشـمائل

مرضـية ، ومحـامد ، ومـآثر

ولم يستطع خيال الشدياق ولا شاعريته أن يحلق الى مجال البطولة عند الأمير العربى المجاهد أكثر من هذا ... ويسوقنا النسيب فى مطلع مدحة الأمير الجزائرى الى الحديث جملة عن غزل الشدياق ، ذلك الرجل الذى فتن بالمرأة وبجسدها فتنة تكاد تبلغ حد النهم ! وفارياقه يدل على ميوله الجنسية القوية العارمة ، وهو لا يستحى أن يصرح بها ، مما جعلها نقطة ضعف فى ذلك الكتاب الرائع الممتع ... فهل استطاع الشدياق فى غزله أن يتحرر من قيود التقليد وأن يجدد ؟ انه ظل هنا كما ظل فى كل فنون شعره : محاكيا مقلدا ، مغنيا على الطنبور القـديم ! فاسمع احدى غزلياته :

أو ما كفانى اليـوم طول ثنـائى

عمن أحب ، ولات حين لقـاء ! ؟

يا راحـلين وفى الفـؤاد مقامهم

كم ذا أقول سكنتمو أحشـائى

ولكم أعاتب سـوء حظى فيكمو

لكن دهرى لا يجيب ندائى !

سـافرتم للبرء ممـا نالـكم

فمتى يكون بقـربكم ابرائى ؟

ومتى يتيـح لى الزمان لقـاءكم

وتكف كف البـين عن ايذائى ؟

وأغلب الظن أن القطعة التى منها هـذه الأبيات وغزلياته الأخرى فى التشوق ولوعة الفراق كانت فى زوجته حين تركته فى الغرب وجاءت الى الشرق مستشفية .

ولا نجد فى شعر الشدياق وقصائده أصـدق عاطفة ، ولا أخلق حسا ، ولا ألطف تعبيرا من قصيدته الرائية فى رثاء ولده الصغير « أسعد » الذى توفى ودفن فى ضـواحى لندن سنة ١٨٥١ ، وهو ابن عامين اثنين [1] .. وقد حاكى فيها مرثية التهامى الأندلسى لولده الصغير وهى رائية أيضا ، فكأنه عارضها بها . وفيها يقول الشدياق :

الدمع بعـدك ـ ما ذكرتك ـ جار
والذكر ـ ما واراك ترب ـ وار
يا راحـلا عن مهجـة غادرتهـا
تصـلى مـن الحسرات كـل أوار
خطأ وهمـت فأين بعـدك مهجـتى
ما فى حشـاى سـوى لهيب النار

وهى قصيدة جيدة ، تمتاز بالصدق فى الحس ، والحلاوة فى التعبير ، والجودة فى السبك .

ولم نجد حكما على شاعرية الشـدياق وشعره أصـدق

---

(١) ذكر الباحث بولس مسعد فى كتابه « فارس الشدياق » ص ٤٧ أنه توفى وله من العمر عام واحد . وهو وهم من المؤلف ، فان الوالد نفسه يقول : (كان له ولد بلغ سنتين ، وكأنه قد سبك فى قالب الحسن والجمال ..)

ولا أحكم من حكم الأستاذ أحمد حسن الزيات حين قال : (أما شعره فأدنى رتبة من نثره ، وأقل جودة ، وأضعف ابتكارا . فهو فى نثره مجدد ، وفى النظم مقلد ، وفى كليهما ــ بالنسبة الى أهل عصره ــ سابق مجيد ..) [1] ولعل الأستاذ أنيس المقدسى لا يقل صوابا فى الحكم على الشدياق الشاعر حين قال : (ومما قرأناه من شعره لا نسيغ لأنفسنا أن نقول ــ كما قال بولس مسعد ــ ان ديوانه من نفيس الشعر . ولسنا ننكر أن فيه بعض الشعر النفيس ، ولكنه على العموم دون الجيد . والذى يبدو لنا أن الشدياق كاتب متفنن وعالم مدقق . أما فى ميدان الشعر فانه مقصر عن المجيدين فى زمانه من أمثال الشيخ ناصيف اليازجى وطبقته) [2] .

---

(١) تاريخ الأدب العربى ــ لأحمد حسن الزيات .

(٢) الفنون الادبية وأعلامها ــ للمقدسى ــ ص ١٨٠

الشدياق والفن القصصى

كنا نرجو للأستاذ أنيس المقدسى أن يقرأ النبذة التى كتبها الدكتور محمد يوسف نجم عن فارس الشدياق فى كتابه « القصة فى الأدب العربى الحديث » ، وأن يقرأ الفصل الذى جاء فى هذا الكتاب أيضا عن « مدرسة المقامات » ، حتى يستطيع أن يقول لنا شيئا ذا بال عن الناحية القصصية عند الشدياق .

ولقد أجاد المقدسى كعادته فى تلك الدراسة الدقيقة الواعية المنصفة التى كتبها عن أحمد فارس الشدياق فى كتابه الجيد : « الفنون الأدبية وأعلامها » ، ولكنه ترك لنا فى النفس شيئا حول الاتجاه القصصى فى كتابات الشدياق ، فانه لم يعرج عليها لحظة واحدة ، ولم يلم بها ولو المامة قصيرة عابرة .

والحق أن الأستاذ مارون عبود ــ رحمه الله ــ كان أول من نبه الأذهان الى الناحية القصصية عند الشدياق ، ولا نعرف ــ على قدر علمنا ــ كاتبا آخر سبقه الى ابراز هذه البذرة القصصية الأولى والاشارة اليها ولو فى ايجاز كما فعل . وقد تولى الدكتور محمد يوسف نجم بعد هذا تشقيق الكلام عن الطابع القصصى عند الشدياق ، ذلك الطابع الذى لو تعهده صاحبنا ، واتجه اليه ، ومضى فيه ، وكتب القصة على أصولها لكان فيها رائدا مبدعا .

ولعل اللفتة القصيرة الذكية التى أشار بها مارون عبود الى ناحية القصص عند الشدياق هى التى وجهت باحثا بعده الى أن يطيل الكلام فى هذه الناحية . كما وجهتنا اليوم الى أن نعقد فصلا خاصا فى كتابنا هذا عن الشدياق والفن القصصى .

ولقد كان مارون عبود على صـــواب حين قال : (والميزة الغالبة على انشائه هى « القص » حتى تكاد تراه يسوق مقالاته الأدبية مساق القصص) [1] . ويعود الأستاذ عبود بعد سطور الى كتاب « الساق على الساق » للشدياق فيقول عنه : (فاذا قرأت فارياقه أنكرت أن يكون سيرة حياة ، فهو عندى قصة رائعة ، لا بل أروع القصص ، وهل نكتب غير قصتنا حين نكتب قصة غيرنا ؟ ماذا كان يقصد حين جرد من نفسه شخصا سماه الفارياق ، فكتب قصته بلسانه ؟ أى فن أراد ؟ وأى احساس أحس حتى فعل هذا ؟) [2]

ومشى الأستاذ يوسف نجم فى الدرب الذى مهده مارون عبود ، وزاد عليه ، فبعد أن عد كتاب المقـــامات أول من حبا نحو الأقصوصة فى الأدب العربى الحديث ، انتقل الى طائفة من كتاب المقامة المعاصرين منهم أحمد البربير ، والمنير ، ونقولا الترك ، وناصيف اليازجى ، وابراهيم الأحدب وغيرهم . ولم يفته أن يضيف اليهم أحمـــد فارس الشـــدياق الذى كتب فى

---

(١) صقر لبنان ــ لمارون عبود ــ ص ١٢٨
(٢) المصدر السابق ص ١٢٩

فارياقه بضع مقامات . وقد حكم على مقامات الشدياق واليازجى بأنها كانت أنضج المحاولات فى هذا الفن [1] .

وانتقل بعد هذا الى الحكم على موهبة فارس الشدياق القصصية قائلا : (أما الشدياق فهو — فى نظرنا — أكبر موهبة قصصية أهدرت فى مطلع نهضتنا الأدبية . فقد دل كتابه «الساق على الساق » على أن عقليته القصصية ناضجة الى حد كبير ، وان لم يستغلها فى هذا الفن . وكتابه هذا هو ترجمة لحياته ، كتبت بأسلوب قصصى فنى طريف . وفى بعض الفصول يرتفع النبض القصصى الى منزلة الآثار العالمية . وأعتقد أن الشدياق ، لو لم تصرفه السياسة والصحافة عن الابداع الأدبى ، كان بامكانه أن يكتب القصة ، بشروطها النقدية الحديثة ، فيكون آنذاك البداية الموفقة لهذا اللون من الأدب عندنا) [2] وفى هذا الاعتقاد الشرطى الأخير بأداة « لو » يكاد الدكتور محمد يوسف نجم يأخذ حرفيا عن الأديب مارون عبود ويمتح من بئره حين قال : (وهو لو لم ينفق شطرا من حياته فى شئون أخرى لما قصر فى الفن والأدب والفلسفة عن أعاظم رجال اليوم) [3] ، وقد صرح يوسف نجم بهذه الصوارف التى شغلت الشدياق عن الابداع الفنى ، وهى السياسة والصحافة ، أما الأستاذ عبود

---

(١) القصة فى الأدب العربى الحديث — لمحمد يوسف نجم .
(٢) المصدر السابق — ص ٢٣١
(٣) صقر لبنان — لمارون عبود — ص ١٢٩

فقد أسماها شئونا أخرى ، ولعله أراد أن يوسع بهذا التعبير مجال الشواغل عند الشدياق .

وقد احتاط مؤلف « القصة فى الأدب العربى الحديث » فى حكمه على الموهبة القصصية الشدياقية بقوله : فى نظرنا ، وتلك سبيل من السماحة فى ابداء الآراء وعدم التسلط فى فرضها ... فللقارىء أن يحتكم الى عقله وتقديره ، وأن يحكم بعد ذلك بما شاء . والحق أننا نميل الى ما ذهب اليه الأستاذان مارون عبود ومحمد يوسف نجم ، فان من يقرأ كتاب الفارياق يدرك لأول وهلة ذلك الأسلوب القصصى الذى كتبه به صاحبه . وقد يصح أن يكون هذا الكتاب سيرة حياة أو صورة لصاحبه ولزوجه ولألوان من الناس لقيهم الشدياق فى وطنه لبنان ، وفى مصر ، وفى مالطة ، وفى انجلترة ، وفى فرنسا ، وفى عاصمة العثمانيين ، ولكن مؤلفه اعتمد فيه على الفن الحكائى ، فهو يحكى دائما ، وهو يصور الواقع ولكن يلونه ويمزجه بشىء من الخيال . وليست مقاماته الأربع وحدها هى التى تحمل الطابع القصصى وعناصره ، ولكن الكتاب كله فى أكثر فصوله يشتمل على هذا .

ويخيل اليك وأنت تقرأ « الفارياق » أنك تستمع الى شيخ ذهب كثير من عمره ، وأخذ يستحضر ذلك الماضى البعيد ويقصه عليك فى لذة وتذوق واستحلاء ، كما تجلس الجدة الى حفدتها فتسمعهم لذيذ الحكايات ...

والشدياق حين يستحضر ما مر به من حوادث وأخبار

يعرضها عرضا فنيا جذابا مشوقا . ولعل تصويره لليلة الزفاف ــ أو لليــلة دخلته فى مصر على بنت الصولى التى صــارت زوجه ــ يعد من أمتع الصور الحكائية ، وكذلك تصويره لحياة الرهبان فى الأديرة بعد أن عاينها بنفسه ، واعترافاته بقصة عشقه فى مصر وزواجه منها ، وتصويره الفاتن للوليمة التى دعاه هو وزوجه اليها المستر استيفن ، وتصويره لتجواله هو وزوجه فى شوارع مالطة بزيهما الشرقى المصرى والناس يعجبون منها ولم يكونوا يعرفون زوجته أنها امرأة ! فكان بعضهم يقول : أرجل هذا أم امرأة ؟ وبعضهم يتعقبها وبعضهم يلمس أثوابها ويحدق فى وجوههما ، ويقول : ما رأينا كاليوم قط شىء لا هو رجل ، ولا امرأة !!

خسارة أن هذه النواة الطيبة للقصة العربية فى القرن التاسع عشر تهمل ، أو ينصرف صاحبها عنها الى شىء آخر ، ولو أنه مضى على الدرب لتقدم تاريخ النشأة القصصية فى الأدب الحديث عشرات من السنين ، كان يكون لها شأن فى سرعة التطور الذى بلغناه اليوم فى القصة العربية ...

دور الشدياق في اللغويات

اشتهر الشدياق بالدور الكبير الذى قام به فى خدمة القضايا اللغوية فى القرن التاسع عشر ، ولقد غلبت مقدرته فى اللغة على براعته فى النحو ، مما يوجب أن نعده من اللغويين لا من النحاة . والفرق بين النحوى واللغوى واضح لا يحتاج الى تطويل فى البيان . فابن هشام المصرى ، وابن مالك ، والأشمونى ، وابن عقيل مثلا كانوا من النحاة . والأزهرى وابن فارس والجوهرى وابن دريد والفيروز آبادى وابن منظور كانوا من اللغويين .

ويرجع اهتمام الشدياق باللغة وألفاظها ومعجمها الى أيام طفولته كما يصرح لنا هو بذلك فى الساق على الساق حيث يقول : (كان للفارياق ارتياح غريزى من صغره لقراءة الكلام الفصيح ، وامعان النظر فيه ، ولالتقاط الألفاظ الغريبة التى كان يجدها فى الكتب)[1] .

وأخذ الشدياق يقرأ كتب اللغة والأدب والشعر ، ويدخر من حصيلتها ثروة لغوية هائلة ، وأعانته على هذا حافظة قوية جبارة ، فما كان يند عنه لفظ حين يريد أن يستحضره لمعنى من المعانى ، وما كان يعييه الاتيان بمترادفات كثيرة للفظ الواحد .

---

(١) الساق على الساق ــ ص ٢٠

وكتابه « الساق على الساق » هو معجم حى لكثير من الألفاظ الغريبة التى أخرجها من المعجم اللغوى الميت الى الاستعمال فى الحكاية والمقامة وسرد تاريخ الحياة ، ووصف رحلاته وأسفاره . وتقع فى هذا الكتاب على غرائب من الألفاظ لمسميات فى أحوال وأوصاف مختلفة . فالبيت فى أصـــله بيت ، ولكن البيت الذى يستظل به كالعرش غير البيت المسنم من قصب ، غير المربأ الذى ينظر منه من عل ، غير البيت المقدم أمام البيوت ، غير السرادق المضروب ، غير البيت من الطين ، غير البيت الذى لا باب فيه ولا ستر ، غير البيت من الحجر ، غير البيت من أدم ، غير البيت من الشعر ، غير البيت الدفىء ، غير البيت المدهون بالجص ، غير القصر . فلكل نوع من هذه البيوت لفظ خاص به فى اللغة العربية .

وقد جمع الشدياق فى كتابه هذا كثيرا من أمثال هـــذه الألفاظ لموضوعات ومسميات مختلفة الصفات كما ملأ الشدياق كتابه بالمترادفات . وحذر من أن يتسرب الظن الى أنها بمعنى واحد ، والا لكان العرب أسموها : المتساوية ، وانما هى مترادفة بمعنى أن بعضها قد يقوم مقام بعض . (والدليل على ذلك أن الجمال مثلا والطول والبيـــاض والنعومة والفصـــاحة تختلف أنواعها وأحوالها بحسب اختلاف المتصف بها ، فخصت العرب كل نوع منها باسم ، ولبعد عهدهم عنا تظنيناها بمعنى واحد . وقس على ذلك أنواع الحلى والمـــأكول والمشروب والملبوس والمفروش والمركوب . لا بل عندى ــ ولا أخشى أن يقال : أو لك عند ؟

ــ انه اذا كان اسمان ممشتقين من مادة واحدة ، وكانا يدلان على معنى واحد ، كالنحجوح ، والنحجوجاة مثلا للريح الشديدة المر ، فلا بد وأن يكون الاسم الزائد فى اللفظ زائدا فى المعنى أيضا) [1]

فالشدياق هو أول القائلين فى عصر النهضة الحديثة بأن زيادة المبنى تحمل زيادة فى المعنى . ولعل الجديد فى الدراسات والابتكارات اللغوية التى كان الشدياق فيها سابقا لم يسبقه غيره هو بحثه الطـريف فى خصائص لغة العرب ــ وخاصة الحروف العربية ــ وقد دفع الشدياق مظنة أن يقال ان السيوطى اللغوى المشهور قد سبقه اليه فى كتابه « المزهر » فاحتاط لذلك بالاستدراك عليه ، والتنبيه اليه ، مبينا أن سبيل السيوطى كانت غير سبيله هو ، قائلا بنص عبارته : (وقد طالعت كتاب المزهر فى اللغة للامام السيوطى رحمـه الله ، مما ذكر فيه خصائص اللغة ، نقلا عن الامام اللغوى ابن فارس ، فلم أجـده تعرض لهذا النوع ، بل ربما أورد من الخصـائص أحيانا ما لا ينبغى ايراده ، كجعله مثلا اطلاق لفظة « الحمار » على البليد منها) [2]

فما هو هـذا النوع الذى لم يتعرض له السـيوطى ولا اللغوى ابن فارس وكان الشدياق فيه رائدا مبتكرا ؟

لقد كان المؤرخ جورجى زيدان هو أول من نبه من كاتبى سيرة الشدياق الى بحثه الجديد فى خصائص الحروف العربية

---

(١) الساق على الساق صفحة ١٢

(٢) الساق على السـاق ـ صفحة ٢٣ من ذيل الكتاب أو من ذنبه كما أسماه الشدياق !

وخصائص اللغــة على العموم ، وجاء مارون عبود فأشار الى ذلك بايجاز فى كتابه « صقر لبنان » . على أننا لن نرجع الى زيدان للتعريف بالكتاب الذى كان مدار هذا البحث الطريف ومجاله ، وانما نعود الى الشدياق نفسه لنذكر ما قاله هو عن كتابه . غير أن الأسف يحزننا حين نعرف أن هــذا الكتاب ، واسمه « منتهى العجب فى خصائص لغة العرب »[1] قد التهمه الحريق الذى أصاب منزل المترجم له فى الآستانة فلم يتم طبعه ، واخاله لن يتم ، فلا نعلم أن هناك نسخة خطية أخرى منه . يقول الشــدياق : (فمن خصائص حــرف الحاء : الســعة والانبساط ، نحو الابتحاح ، والبداح ، والبراح ، والأبطح ، والابلنــداح ، والجح ، والرحــرح ، والمرتدح ، والروح ، والتركح ، والتسطيح ، والمسفوح ، والمسمح فى قولهم : ان فيه لمسمحا ، أى متسعا ، والساحة ، والاتسياح ، والشدحة ، والشرح ، والصفيحة ، والصلدح ... ومن خصــائص حرف الدال : اللين ، والنعومة ، والفضاضة ـــ وساق لذلك أمثلة كثيرة من الألفــاظ ـــ ومن خصــائص حــرف الميم : القطع والاستئصال والكسر ـــ وساق ألفاظا كثيرة على سبيل المثال ـــ ويكثر فى هذا الحرف أيضا معنى الظلام والسواد) .

وكان الشدياق اللغوى من كبار المدافعين عن (عروبة) اللغة العربية وأصالتها بالنســبة لأخواتها السامية كالسريانية

---

(١) أسماه مارون عبود « منتهى العجب فى لغة العرب » وهو وهم .

والعبرية . وقد كانت محاولته فى كتابه اللغوى « سر الليال ، فى القلب والابدال » تدور حول تبيين مشتقات الألفاظ ، ونسق الأفعال بعضها ببعض بايضاح معانيها ، حتى تندفع دعوى من يدعى أن بعض ألفاظ العربية مأخوذ من لغات الأعاجم ، مثال ذلك لفظة « كنز » فى العربية التى زعم الخفاجى صاحب كتاب « شفاء الغليل بما فى كلام العرب من الدخيل » أنها معربة لكلمة : « كنج » الأعجمية ... وبنـــاء على طريقته فى نسق الألفـــاظ واشتقاقاتها يتضح أن لفظة « كنز » عربية ، فانها من « الكن » وهو الستر ، ومنه جن الشيء ــ بمعنى ستره ــ وكتبه ، وكند النعمة ، أى كفرها وسترها ، وكنس الظبى ، أى دخل فى كناسه فاستتر فيه ، والكنيسة متعبد اليهود ، وحقيقة معناها مكان يستتر فيه . وتترك الشدياق لقلمه يصل الى النتيجة التى يريدها قائلا : (فأنت ترى أن معنى الستر والجمع دائر فى جميع هذه الألفاظ . فاذا ادعى فارسى أن الكنز معرب « كنج » أو سريانى أن الكنيسة معرب « كنشى » بمعنى جماعة ، قلنا لهما : بل أنتم قوم لثغ ، لم تحسنوا النطق بألفاظنا فبدلتموها وحرفتموها ...)

على أن الشدياق لم يجزم بعروبة ألفاظ اللغة العربية كلها ، فهناك ألفاظ وفدت الى العرب من الأعاجم لمسميات لم يعرفها العرب ، فأدخلوها فى لسانهم . ونراه شديد الاحتياط فى هذا الباب ، شديد الاحتراس من الانزلاق فيه فيقول : (نعم ! أنى لا أنكر أن يكون قد دخل فى لغة العرب بعض ألفاظ من لغة العجم ، وهى أسماء لأشياء لم تكن معــروفة عند العرب ،

كلفظة : الاستبرق ، مثلا ، الا أن ما كان بخلاف ذلك لا ينبغى أن يحمل عليه . فلا يصح أن يقال ان اللجام معرب ، لأن العرب عرفت الخيل وما يلزم لها قبل جميع الأمم . ومن هذا القبيل : الكنز ، والخوان ونحوهما ، مما ذكر فى « شفاء الغليل » ، و « كليات أبى البقاء » . ومما مر من تناسق الألفاظ فى العربية تعلم أن هذه المزية مخصوصة بها) .

وهكذا ترى الرجل لا يرتجل الحكم على أصالة ألفاظ العربية ، بل يبنيه على أساس سليم ، وملاحظات ذكية ، ومقارنات واعية من اشتقاق الألفاظ ونسق الأفعال وتناسب الحروف بعضها مع بعض .

لقد كانت ألفاظ المعجم العربى شغل صاحبنا الشاغل ، كما كانت كل لفظة يسمعها تشغله فلا يقبلها على علاتها وانما يردها الى أصل مفهوم . وتمكن من نفسه ذلك الغرام اللغوى حتى بات يسطره حتى فى كتب رحلاته ، لا فى مصنفاته اللغوية وحسب ، ففى كتابه عن مالطة يلاحظ أن القوم هناك يسمون القارب الصغير « دعيصة » فيعلق على هذا قائلا : (وكأنه تصغير « دعصة » الرمل ، شبهوه بها لاستدارته وصغره ، وهذا دأب العرب فى أنهم يسمون الأشياء الغريبة عنهم بما ألفوه فى بلادهم) [1] وله فى هذه الرحلة وكتابها مواقف لغوية تتركها لقارىء الكتاب .

---

(١) الواسطة فى أخبار مالطة ــ ص ٢٣

ويروى الشدياق لنا أنه كان يحمل معه كتاب « القاموس المحيط » فى أسفاره ، والواقع أنه لم يكن فى حاجة الى حمله ، فقد حفظه كله عن ظهر قلب حتى أصبح قاموسا متنقلا . وقد كان يحمله ليتعقب ما فيه من قصـــور وابهام وايجاز وايهام وصعوبة فى مراجعة الأفعال ومشتقاتها . ولم يحمل الرجل على ذلك العناء المرير الا حبه الشديد للغة العربية ، فقد رأى بعينيه كيف تكون المعاجم فى اللغات الأجنبية ، وكيف أن الكشف فيها أسهل ، والوصول الى اللفظة المرادة أسرع وأعجل ، ولا سيما أن تلك اللغات لا تدانى العربية كثرة اشتقاق ، وليس فى تعريف ألفاظها كبير اختلاف فى الروايات . وخشى صاحبنا ــ رحمه الله رحمة واســعة ــ أن يحمل هــذا العناء فى لغتنا أصحاب النفوس المريضة على أن يهجروا لسانهم العــربى الى اللسان الأجنبى . أما ثانى الدافعين لحمله على تأليف « الجاسوس على القاموس » فهو ــ كما يقول بلفظه المشرق المبين (حث أهل العربية على حب لغتهم الشريفة ، وحث أهل العلم على تحرير كتاب فيها خال من الاخلال ، مقرب كما يطلبه الطالب منها دون كلال ، فانى رأيت جميع كتب اللغة مشوشة الترتيب ، كثر ذلك أو قل ، وخصوصــا كتاب « القــاموس » الذى عليه اليوم المعول ...)

وفى مقدمة « الجاسوس على القاموس » كلام عن المعاجم العربية حتى عهد المترجم له . وقد نبه الشـــدياق الى ما فيها جميعها من تشويش فى ترتيب الأفعال ومشتقاتها ، وما فيها من

نقص فى تفسير الألفاظ حسب أصول وضعها ، واهمالها حروف التعدية فى تعريف لفظة بلفظة أخرى ، وايرادها أحيانا الفعل الرباعى من دون الثلاثى ، مما يوهم أن الفعـــل الثلاثى غير موجود ، وتفسيرها الألفاظ بلازم معنـــاها ومفهومها ضمنا ، لا بالمعنى الأصلى . ومن رأيه أن التفسير المجازى أو التفسير باللازم لا يأتى الا بعد التفسير اللغوى الأصلى . فحين تفسر المعاجم كلمة « الزهيد » بالقليل ، فهذا تفسير باللازم ، لأن الزهيد فى أصـــله اللغوى هو المزهود فيه . وكتفســـير كلمة « بضاعة مزجاة » ببضاعة قليلة . وهـــذا تفسير باللازم ، لأن معناها اللغوى الأصلى : بضـــاعة مدفوعة . وفى المقدمة غير هذا من النظرات العامة التى جعلها الشدياق أساسا ومدخلا لنقد القاموس المحيط نفسه .

وفى القسم الثانى من الجاسوس يتناول نقد القاموس نفسه ، وقد حصر أوهامه وأخطاءه فى بضعة وعشرين نقدا ، منها ابهام تعريف الألفـــاظ والتباسها وغمـــوض عبارته ، واضطرابه فى المصادر والمشتقات ، والمفردات والجموع والمعربات ، وتعريفه بالمجهول فلا يزيد اللفظ تعـــريفا والأولى أن يعرف بالمعلوم الشائع ، واغفاله ذكر الأضداد والقلب والابدال ، وخبطه فى التذكير والتأنيث ، وتناقضه فى التفسير أحيانا .

وكان الشدياق يعلى من قيمة العقل فى الاجتهاد اللغوى ، ولا يرى التقيد بالنقل فقط ، فلم يحجر على باحث ولو متأخر فى الزمان ما دام العقل رائده ، ومن هنا لم يجد حرجا على

المتأخرين فى تكملة ما أهملته معاجم السابقين ، ولم يقف بالامامة اللغوية عند زمن معين ، فهى ماضـــية فى تاريخ الفكر العربى ما دام هناك عقل يحسن الاستنتاج ، ويجيد الاستدلال .

اننا نعرف لغويين يمتازون بالحفظ الكثير ، والثروة الواسعة من ألفاظ المعجم العربى ، فهم وعاء يزدحم بحصيلة من الكلمات الغريبة المدفونة فى بطون المعاجم لم يحيها استعمال ، ولم يجل صدأها تداول . ولكنهم يقفون عند هذا الحد لا يتعدونه الى البحث والنظر والتدقيق والدراسة وجودة الاســتنباط . أما الشدياق فقد جمع فى اللغة بين الحفظ والرواية ، وبين الدرس والدارية . واذا كان قد أظهـــر ثروته ونوادره اللغــوية فى « الفــارياق » ، فان « الجاسوس على القــاموس » و « سر الليــال » و « منتهى العجب » تكشف لنا عن باحث لغوى ، وعالم فى فقه اللغة لم يتصادف تاريخ الأدب العربى مثله من أيام ابن جنى ، وابن فارس ، وأمثــالهما من كبار اللغــويين المتعمقين ...

دور الشدياق فى الترجمة والتعريب

كان التقاء الشرق بالغرب فى القرن التاسع عشر سببا فى أن يدخل الى البلاد العـــربية كثير من مظاهر الحضارة الأوربية وأدواتها ، وهى أشياء لم يكن للعرب المحدثين سابق اتصال بها ، ولا اطلاع عليها ولا استعمال لها. .. ومن هنا اقتضت الضرورة أن يكون لهذه الأشـــياء الحديثة فى المعجم العربى الحديث وفى الاستعمال الشائع ألفاظ عربية أو معربة تحدد معانيها وتدل عليها .

وقد سبق للعرب مثل هذه التجربة فى حركة الترجمة والنقل فى العصر العباسى ، حيث بدأ النقلة والمترجمون يضعون مئات ومئات من الألفاظ لمسميات جديدة طرأت عليهم باختلاطهم مع الأعاجم ســـواء أكانوا من الفـــرس أم الروم أم الأحباش أم غيرهم . ولم يكن هذا دور النقلة والمترجمين وحده ، ولكنهم نقلوا العبـــارات الأجنبية الى عبارات عربية . ولهـــذا جمعت الترجمة بين ترجمة الألفاظ وترجمة الأساليب .

والذى حدث فى العصر العباسى حدث فى البلاد العربية فى القرن الماضى ، حدث فى مصر ، وحدث فى الشام ، وحدث فى كل وطن عربى استجدت فيه مظاهر جديدة للاختلاط بالأوربيين

والنقل عنهم . ففى مصر — وفى أوائل القرن التاسع عشر — كان هناك جماعة من النقلة والمترجمين المختصين بنقل العلوم المختلفة كالطب والرياضة والزراعة والعلوم الحربية على رأسهم رفاعة الطهطاوى الذى رأس قلم الترجمة فى عصر محمد على ، وتولى نظارة مدرسة الألسن ، وخرج جيلا ضخما من المترجمين الذين أسهموا فى بناء النهضة فى القــرن الماضى . وفى الشام — بمعناها الواســع — كان هناك بطرس البســتانى وجماعة المترجمين الأولين الذين ازدهرت على أيديهم حركة الترجمة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

واذا كان البستانى قد انصرف الى النقل والترجمة أكثر مما فعل الشدياق ، فان لهذا فضلا فى ترجمة وتعريب طائفة من الألفاظ الأجنبية ووضع كثير من ألفاظ الحضارة التى أخذت سبيلها الى الاستعمال ، ولا يزال بعضها مستعملا حتى اليوم .

ويذكر الأمير مصطفى الشهابى [1] أن لفارس الشدياق كتابا اسمه « شرح طبــائع الحيوان » ، وضــع فيه أسماء لبعض الحيوانات لا تزال شائعة . . على أن هذا الكلام يوهم أن كتابه هذا مؤلف ، والحق أنه مترجم عن الانجليزية فى جزءين طبع أولهما فى مالطة سنة ١٨٤١ وهو كتاب مدرسى الا أن الشدياق ترجم فيه كثيرا من الألفاظ الدائرة حول موضوع الحيوان .

ولسنا نزعم أن ترجمة الألفاظ وتعريبها عند الشدياق قد بلغ

---

(١) انظر كتابه (المصطلحات العلمية فى اللغــة العربية) — طبع دمشق ١٩٦٥ ص ٥٠

حد اقرارها بالعرف والاستعمال حتى يومنا هذا ، ولكنها كانت مستعملة فى عصرها وتلقاها ذوق ذلك الزمان الى أن جاءت ألفاظ أخرى لمترجمين أو واضعين آخرين طردتها وحلت محلها . ومثل هذا ما فعله رفاعة الطهطاوى رائد النهضة الحديثة فى القرن التاسع عشر . فلقد كان الرجلان متعاصرين ، ثم تزاملا فى تحرير الوقائع المصرية ، وسافر رفاعة الى فرنسا وألف كتاب رحلته عن باريس ، وسافر الشدياق الى مالطة وانجلترة وفرنسا وألف كتابى رحلته ، ولقى كل منهما صورا من الحياة والفكر فى فرنسا غير ما وجداه فى مصر ولبنان ، ورأيا أشياء ومخترعات لم يسبق لهما رؤيتها فى وطنيهما . فترجما ما استطاعا ، وعربا من الألفاظ ما قدرا عليه . وتركا للذوق والاستعمال قبول هذه الألفاظ ، فلم يكونا غير ماهدين للطريق .

واذا كنا نصادف عند رفاعة الطهطاوى ترجمات وتعريبات لم يكتب لها البقاء اليوم ، فاننا نجد مثل ذلك عند الشدياق . فقد استعمل رفاعة للصحف ألفاظا مثل : الورقات اليومية ، والتذاكر اليومية ، والجورنال ، والكازيطة ـــ أى الجازيت . بل يجمع جرنالا على « جورنو » مثل جمعها الفرنسى تماما ... كما استعمل « ديوان رسل العمالات » لمجلس النواب ، واستعمل « خزنة المستغربات » لما نسميه اليوم متحفا ، واستعمل للسفير كلمتين أولاهما معربة وهى « ايلجى » والثانية « رسول البلد » وهى ترجمة لمعنى الكلمة الفرنسية المشتقة من « Elire » .

أما الشدياق فاستعمل كذلك ألفاظا لم يكتب لهـا البقاء كالتشخيص لما نسميه اليوم « تمثيلا » ، وثياطرا للمسرح ــ وان كان بعضهم عربها بعده بلفظ « تياترو » ، واستعمل عبـارة « المألك العام » لما يسمى بديوان البريد ، أو لما عرب بكلمة « البوسطة » ، واستعمل للأكاديمية كلمة « المشيخة » ، وان كان الشيخ رفاعة وضع لها عبارة « ديوان العلوم » .

ولقد سار الرجلان ــ كما سار معاصروهما ــ فى الترجمة والتعريب الى غاية الأمد ، لا يقفون عند لفظة يضعونها ، بل يمضون فى الرسالة ويتركون للزمان وللعرف وللذوق والاستعمال وللقراء الحكم على ألفاظهم بالبقاء أو الفناء .

لقد عرب الشدياق ألفاظا أجنبية تصادفها فى كتبه ومقالاته فى « الجوائب » . فمن معرباته التى تصادفها فى كتابى رحلته : « ركطر » لرجل القرية الدينى ، و « الفيكار » لقسيس القرية وكاهنها ، و « بالى روايال » أى القصر الملكى ، و « البلفار » للطريق الواسع الطويل ــ وقد عربه الطهطاوى الى بلوار ، بالواو لا بالفاء ــ و « الهوتيل » للفندق ، وعشرات وعشرات بل مئات من مثل هذه الألفاظ التى اضطر الى ادخالها فى اللسان العربى مع شدة حفاظه اللغوى ، وان كان فى الحق قد لجأ الى الترجمة ــ أى وضع لفظ عربى يؤدى المعنى الأجنبى ــ حتى ينفى عن المعجم العربى ما ليس عربى الأصل والبناء . ومن مترجماته كلمة « جريدة » لما نسميه اليوم بالصحيفة ، ولا تزال كلمته باقية الى اليوم ، ولا أدرى من أين جاء مؤلف كتاب « الشيخ ابراهيم

اليازجى» قوله ان لفظ « الجريدة » من وضع الشيخ ابراهيم [1] ، وكذلك نجد عند الشدياق من مبتكرات الوضع من طريق الترجمة أمثال الكلمات التالية : المسبت للمخدر ، وسفينة النار للباخرة ، ودروب الحديد ، للسكك الحديدية ، والمشيخة للأكاديمية ، والحافلة للعربة الكبيرة التى تسع كثيرا من الأشخاص ، والمألك العام لديوان البريد ، والسطح المسنم للسطوح المنزلية المدببة غير المسطحة كسطوح بيوت أوربا ، والمرافد للحشايا الصناعية التى يضخم بها النساء أردافهن ...

ويلاحظ أن الشدياق فى ترجمته للألفاظ والمصطلحات الأجنبية كان كثيرا ما يلجأ الى الترجمة الحرفية ، فترجم تعبير « Honey Moon » بقمر العسل ، والتزم الحرفية التامة لكلمة «Moon» ومقابلها بالعربية قمر . وقد جاء بعده مترجمون فوضعوا لها عبارة « شهر العسل » التى لا تزال شائعة الى اليوم .

ومن طرائف الترجمة عند الشدياق أنه كان فى خلال تعريبه لأسماء المواضع والأشياء يستعمل اللفظ الأجنبى بنطقه فى لغة القوم — وهذه ما نسميها تعريبا ، ثم يضع بجانبه — فى خلال الكلام والسرد الحكائى للرحلة — الترجمة الحرفية لما يقابل معناه فى اللغة الأجنبية . فهو يذكر مثلا ميدان « الشانزلزى » [1]

---

(١) سلسلة « نوابغ الفكر العربى » — رقم ١٤ — للأستاذ عيسى ميخائيل سابا .

(٢) كشف المخبأ — ص ٢٤٢

بهذه اللفظة الفرنسية ثم يضع بجوارها ترجمتهـا قائلا : أى « روضة الأصفياء » . أو يذكر أولا الترجمة العربية التى رآها للكلمة الأجنبية ويعقبها بقوله : المسمى ، كقوله يصف سوق باريس الزجاجى : (السقائف أو المعابر ، المسماة بالباساج ، وهى أسواق مسقفة بالزجاج)[1] .

ولم يتقيد الشدياق فى ترجمة مصطلحات الحضارة الحديثة بترجمة واحدة يفرضها على الناس الذين يكتب لهم ، ولكنه كان يترجم مصطلحا بلفظ أو عبارة معينة ، ثم يعود فى موطن آخر أو فى مقال آخر فيترجمه بلفظ أو عبارة أخرى . وذلك لكى يدع للقراء وللذوق العام مجال الاختبار وايثار ترجمـة على ترجمة . فقد وضع للسكك الحديدية ترجمتين : دروب الحديد[2] ، ثم عاد فوضع لها مصطلح « سكة الحديد »[3] . ولم يكن هذا عن اضطراب فى المذهب الترجمى ، ولكنه كان فسحا لمجـال التفضيل فى الاستعمال .

ولقد شارك الشدياق فى الترجمة العربية للتوراة ، وهى الترجمة التى قامت بها ـــ أعنى باصدارها والانفاق عليها ـــ الجمعية الانجليزية المعروفة بجمعية ترقية المعارف المسيحية . وهذه الترجمة غير الترجمة للمبعوثين الأمريكان فى سورية ، التى قام بها الدكتور عالى سميث ، والدكتور ڤانديك ، وقد عاون

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٤٠

(٢) الساق على الساق ـ ص ٢٨١

(٣) المصدر نفسه ص ٣٠٢.

فى تنقيحها وتصحيح عبارتها بطرس البستانى ، وناصيف اليازجى ، والشيخ يوسف الأسير ـ وهو من كبار علماء المسلمين وأحد رواد النهضة الحديثة فى لبنان . أما مشاركة الشدياق فكانت مع المستشرق الانجليزى الدكتور « لى » الذى يروى لنا كثيرا من أخباره معه فى كتاب رحلته الى أوربا .

ومن الحق للتاريخ أن تقول ان الترجمة الأمريكية للتوراة ـ أى التى قام بها المبشرون الأمريكيون باشراف سميث وڤانديك ـ هى التى لا تزال متداولة حتى اليوم ، أما الترجمة الانجليزية التى شارك فيها فارس الشدياق فلم يقدر لها أن تنشر ، مع أنها تم طبعها فى لندن سنة ١٨٥٧ ، ويقال ان السبب فى ذلك أنها عولت على الترجمة الانجليزية المعروفة بنسخة الملك جيمس ، وهى ترجمة غير موثوقة وفيها أخطاء تسربت الى العربية . أما ترجمة المبشرين الأمريكان فكانت أصح وأضبط وأقرب الى الأصل لأن بطرس البستانى رجع فيها الى السريانية التى كان يحذقها ، والى العبرية التى تعلمها وأجادها . وهاتان الترجمتان العربيتان للتوراة هما بالطبع غير ترجمة اليسوعيين التى قاموا بها فى لبنان لمنافسة ترجمة المرسلين الأمريكيين ومقاومة نشر مذهبهم الانجيلى « البروتستانتى » ، وقد أشرف على تنقيحها وتهذيب عبارتها الشيخ ابراهيم اليازجى اللغوى المشهور ، وابن الشيخ ناصيف الذى شارك فى تهذيب عبارة النسخة الأمريكية من ترجمة التوراة ...

الجوائب وأثرها في الصحافة والطباعة العربية

لقد ظل الشدياق حتى زادت سنه على الخمسين عاما يحلم بشيئين اثنين فى حياته : المطبعة أولا ، والكتاب ثانيا . وقد دار هذا الحلم الذهبى الجميل فى رأسه فى غير موضع من كتبه وخاصة « الساق على الساق » حيث يقول مرة : (... لا بل ينبغى لك حين تدخل بلادهم — يريد الأجانب — سالما ، أن تقصد قبل كل شىء المدارس والمطابع وخزائن الكتب والمستشفيات والمخاطب أى الأماكن التى يخطب فيها العلماء فى كل الفنون والعلوم) .
ثم يعود بعد قليل ليحض القادرين من أهل وطنه على انشاء المطابع ودور الكتب قائلا : (ويا ليتك تشارك بعض أصحابك من الأغنياء فى انشاء مطبعة تطبع فيها غير ذلك — يعنى كتب الرحلات — من الكتب المفيدة للرجال والنساء والأولاد ، ولكل صنف من الناس على حدته ، حتى يعرفوا ما لهم وما عليهم من الحقوق ، سواء كانت تلك الكتب عربية أو معربة . ولكن احذر من أن تخلط فى نقلك عن العجم الطيب بالخبيث ، والصحيح بالمعتل ...) [1]

ويعيب الشدياق على أغنياء بلاده من العرب أن يملأوا

---

(١) الساق على الساق — ص ٢٧٩

قصورهم ودورهم بفاخر الثياب ، ونفيس الحلى ، وثمين التحف ، وغالى الفراء ، وقصبات التبغ والأراكيل — جمع أركيلة وهى الشيشة — ثم يضنوا بقليل من المال ينفقونه على الكتب والمطابع . ويقول فى هذا (ليت شعرى ! أليس وجود مائة كتاب بدارك فى الأقل خيرا من وجود كذا وكذا قصبة للتبغ ، وكذا وكذا أركيلة ؛ مع أن ثمن المائة كتاب لا يوازى ثمن ثلاث قطع من الكهرباء ؟ أليس وجود مطبعة فى بلادك أولى من هذه الطيالس الكشميرية ، وتلك الفراء السمورية ، وهذه الآنية النفيسة والحلى الفاخر) [1]

وقد حققت الأيام ، أو عمل الشدياق نفسه على تحقيق بعض ما كان يحلم به طول عمره حتى أوفى على الخمسين ... لقد أنشأ الشدياق صحيفة الجوائب فى الآستانة سياسية أسبوعية فى شهر يوليو — تموز سنة ١٨٦٠ [2] ، وعمل الحاج حسين بيهم البيروتى تاريخا شعريا لصدورها سنة ١٢٧٨ هـ . وصادفها أول الأمر من سوء الحظوظ ما لا يد للانسان فيه ، فعجزت مواردها عن موالاة صدورها وأعلن الشدياق افلاسها بعد تسعة أشهر من انشائها — وهو عمر الجنين الذى يستقبل به الحياة لا الموت — وبكى صاحبنا لسوء حظه ، وملازمة النحس له ، وقال فى ذلك شعرا مؤثرا يقول فيه :

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨٠

(٢) هذا هو التاريخ الصحيح لانشاء الجوائب لا سنة ١٨٦١ كما جاء وهما فى كتاب « فى تاريخ الأدب الحديث » لعمر الدسوقى .

أقلّت ذى « الجوائب » قدر حمل
الجنين وأسقطته فى الترائب
ومن يك قرنه الافلاس دهرا
فكيف يطيعه عاصى المطالب ؟
لقد تربت يدى عن نيل طرس
أخط به عن الخطط الغرائب
بكيت وليس يجدينى بكاء
وأرخت : انقضى درس الجوائب

ولكن البكاء لم يطل به ، فقد مد يده لنجدته الصدر الأعظم فؤاد باشا ، وأقال الجوائب من كبوتها فاستقام أمرها وعاشت بعد ذلك أكثر من عشرين عاما حيث انتقلت الى مصر ، فخلفتها فيها جريدتا « القاهرة » و « القاهرة الحرة » . وقد أشرنا فى الفصل الأول من كتابنا هذا الى منزلة « الجوائب » بين صحافة ذلك العصر ، وكيف كان ملوك العرب والاسلام يتهافتون على قراءتها ، ويثقون فى أخبارها .

ولا بد من كلمة حق تقال هنا عن سياسة الجوائب وموقف صاحبها من التيارات العالمية فى عصره . لقد كان الرجل ميالا الى الدولة العثمانية سائرا فى ركابها ، وكانت له عواطف قوية مع مصر ومع حاكمها الخديو اسماعيل ، كما كان من المؤيدين لسياسة انجلترة . وطالما أغدق السلطان العثمانى والخديو اسماعيل المنح على جوائبه ليضمنا تأييده لهما فى سياستهما وللدعاية لهما فى صحيفته . ومع استقلاله فى الرأى وصراحته

أحيانا ووفائه لاسماعيل مما اقتضى تعطيل الجوائب بضعة شهور ، فان له موقفا من عرابى والثورة العرابية أضاع عليه كثيرا مما كسبه من الحب والتقدير فى العالم العربى والاسلامى ، فقد قبل أن يأخذ من انجلترة ــ عن طريق سفارتها فى الآستانة ــ مبلغ ألف جنيه انجليزى ، ليطبع صورة المنشور الذى صدر من الباب العالى باعلان عصيان عرابى واثارته الفتنة فى وادى النيل ، مما جعل عرابى يفقد قيمة حركته الوطنية حتى انتهى به الأمر الى سقوط اعتباره بكونه ثائرا عاصيا ، لا زعيما وطنيا ، وانتهت الثورة العرابية الى مصيرها المعروف . وقد أشار السيد رشيد رضا الى خدمات الشدياق لانجلترة قائلا : (ذلك أنه خدم الدولة الانكليزية فى الآستانة عشرين سنة ، بما كان يعتقد جميع قراء جريدته الجوائب أنه خدمة للدولة ــ يعنى العثمانية ــ فقط ، اذ أقنع مسلمى الهند ، بل العالم الاسلامى كله أن هذه الدولة صديقة للسلطان ودولته ونصيرة لهما) [١] .

ولم تكن صحيفة الجوائب ميدانا لالتقاء الأفكار السياسية وحسب ، ولكنها كانت خميلة يلتقى فيها الأدباء والشعراء ورجال البيان واللغة ، كما كانت ساحة لمعارك وخصومات ومناظرات ومناقشات لغوية وعلمية . وقد تعرف على صفحاتها ورياضها الأدبية الأديبان عبد الله فكرى المصرى والشيخ

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام ــ لرشيد رضا ــ ص ٩٩٧

عبد المجيد الخانى الدمشقى [1] . وبالاضافة الى ذلك العدد الحافل من الكتاب والأدباء الذين كانوا يكتبون فى الجوائب انضم الى هيئة تحريرها الشيخ يوسف الأسير حينما عين فى الآستانة أستاذ العربية فى دار المعلمين ورئيسا للتصحيح فى وزارة المعارف [2] ، والشيخ يوسف النبهانى العالم المؤلف المعروف [3] .

ولا يخطرن على البال أن الجوائب كانت أول صحيفة عربية تصدر فى الآستانة ، فقد كانت جريدة « مرآة الأحوال » لصاحبها رزق الله حسون الحلبى أول صحيفة عربية أنشئت فيها سنة ١٨٥٥ ، وليس صحيحا ما جاء فى بعض كتب الأدب أن مرآة الأحوال أنشئت فى حلب ، وتلك هنة عابرة نمر بها مسرعين مصححين . الا أن تأخر زمان الجوائب فى الاصدار لم يمنعها عن مكانها فى الصدارة بين صحافة العالم العربى الاسلامى كله . وندع هنا بعض الرأى فيها وفى مكانتها للمرحوم محمد كرد على ، من محاضرة له ألقاها عن الشدياق فى باريس فى جمعية الاخاء المصرية . قال كرد على : (ولقد كانت جريدة الجوائب مثال الانشاء العربى البحت ، سارت جميع صحفنا التى أسست بعدها على نسقها . وقلّ ان نشأت لنا جريدة فى صحتها وديباجتها العربية ... وأحمد فارس — لو أنصفنا — هو واضع أساس الصحافة العربية ....) [4] ، كما ندع أسطرا قليلة لما ذكره

---

(١) عبد الله فكرى — لمحمد عبد الغنى حسن — سلسلة أعلام العرب .
(٢) تاريخ الصحافة العربية — لطرازى — ص ١٣٧
(٣) الأعلام للزركلى .
(٤) مجلة المقتبس — السنة الرابعة . وصقر لبنان — ص ١٦٠

عنها المرحوم حسن السندوبى قائلا : (... أفرغ فارسها ما فى كنانته من جهد فى تحريرها بعبارة سهلة ، لم تكن معهودة فى أقلام كتاب الصحف فى تلك الأيام ، وجعل للآداب العربية بين أنهارها مكانا فسيحا ، وميدانا وسيعا . طالما فتح عليه أبواب المناقشات من أدباء ذلك العصر ..) [1]

ولا وجه للقول بأن الشدياق قد تدرب على الصحافة وتمرس بالأساليب الصحفية فى جريدة « الرائد التونسى » قبل مجيئه الى الآستانة ، فقد صححنا فى أول فصول كتابنا هـذا الوهم الذى وقع فيه بعض مؤرخى سيرة الشـدياق من أنه تولى فى تونس تحرير جريدة الرائد التونسى ، وقد كان معـولنا فى تصحيح هذا الوهم الشائع على المرحوم فيليب طرازى فى كتابه عن تاريخ الصحافة العربية .

هذه كلمة وجيزة عن « صحيفة الجوائب » ، وهى تسوقنا الى الحديث عن مطبعة الجوائب التى أنشأها الشـدياق لطبع جريدته فيها مستقلة بدارها بعد أن ظلت تطبـع فى المطبعـة السلطانية الرسمية لمدة عشر سنوات . ولا بد من الاشارة الى الدور العظيم الذى قامت به هذه المطبعة الشـدياقية فى نشر الكتاب العربى فى عصر كان الناس فيه يتلفتون شوقا الى الكتاب المطبوع فلا يجدونه . والحق أن مطبعة الجوائب سدت فراغا كبيرا فى هذا السبيل ولبت حاجة كثـير من القـراء العرب

---

(١) أعيان البيان ــ ص ١١٧

والمسلمين المتعطشين الى الكتاب العربى . وقد امتازت بالاتقان وجمـال الحروف وحسن الاخراج ، كما امتـاز ما نشرته من مطبوعات بنفاسته وقيمته الأدبية ، ولا شك أن اختيار هـذه الكتب للنشر كان مرده الى حكم الشدياق نفسه وعمق معرفته بالكتب العربية التى تستحق النشر . كما أن ضبط مطبوعاتها وتحقيقها وسـلامتها من الأخطاء المطبعية التى اقترنت ـ مع الأسف ـ بالطباعة العربية كان مرجعه الى دقة الشدياق وتحريه وحرصه على سلامة مطبوعاته مما يشينها ، فان وقوع الأخطاء والتحريفات فى الكتب يقلل من قيمتها ومن وجوه الانتفاع بها على أحسن وجه . ولاشك أن الشدياق باصداره مطبعة الجوائب قد استجاب لذلك الحلم الجميل الذى كان يراوده زمانا ، وحقق بذلك أمنيته . ولقد كان الشدياق يوصى أغنياء وطنـه بطبع الكتب التى تفيد الرجال والنساء والأولاد ، ولعله أول صوت عربى نادى فى العصر الحديث بتوجيه الهمم الى كتب الأولاد ومطالعات الناشئة ، واذا كان الزمان لم يسعفه بما تمناه لكتب الأطفال فيكفى ما قدمه الى الكبار من كتب قيمة .

ولسنا هنا بسبيل احصاء بما أصدرته مطبعة الجوائب من كتب قديمة وحديثة ، ومؤلفة ومترجمة ، فليس هذا مقامه ، ولكنا نكتفى بالاشارة الى الموازنات بين أبى تمام والبحترى للآمدى ، ورسائل الخوارزمى ، وديوان العباس بن الأحنف ، وديوان الشاعر المصرى ابن مطروح ، ومقامات السيوطى ، ورسائل بديع الزمان الهمذانى ، ومقامات بديع الزمان ، ورسـائل فى

الحكمة والطبيعيات لابن سينا ، وقصة سلامان وأبسال التى ترجمها من اليونانية حنين بن اسحاق ، ورسالة فى النقود الاسلامية لمؤرخنا المقريزى ، ونثار الأزهار فى الليل والنهار لابن منظور صاحب لسان العرب ، ونزهة الطرف للميدانى صاحب مجمع الأمثال ، وأعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشرى ، وديوان الشاعر المصرى اسماعيل الخشاب المتوفى سنة ١٨١٥ وغيرها . وقد طبع الشدياق كتبه فى الجوائب ، كما أعاد طبع ما سبق طبعه فى باريس وغيرها ، وتولى طبع كتب المؤلف الهندى العالم المحقق الأمير محمد صديق حسن خان ملك بهوبال .

ويجمل بنا فى هذا المجـال أن لا يفوتنا ما كتبه حسن السندوبى عن رأيه فى مطبعة الجوائب حيث قال : (... واذا ذكرت هذه الآثار الجليلة ، فلا بد من ذكر مطبعة الجوائب التى عم نفعها بما أحيته من دارس الكتب العربية ، وما نشرته بالطبع من مكنوناتها بين أبناء الضاد ، حتى ملأت المكاتب بعد أن كانت بعيدة المنال) [1] . وتؤكد هذه الشهادة بشهادة أخرى للدكتور خليل صابات يقول فيها : (والمكتبة العربية مدينة لأحمد فارس الشدياق ومطبعته بتلك الثروة الأدبية التى كانت مدفونة فى خزائن كتب الآستانة ، لا يعرف الناس عنها شيئا ، حتى هيأ الله لها مطبعة الجوائب ...) [2]

---

(١) أعيان البيان ــ لحسن السندوبى ص ١١٧

(٢) تاريخ الطباعة فى الشرق العربى ــ لخليل صابات ــ ص ٢٩

الشدياق نصير المرأة

لقد كان الشدياق كلفا بالمرأة شغوفا بها محبا لها . وكأنما كان عقله النشيط البالغ النشاط ، يفكر فى المرأة فى جميع الحالات . ولقد صور لنا ما كانت تجده فيه زوجته من ذلك وخاصة حين كان يتغزل فى شعره أو ينسب أو حتى حين تحدثه نفسه بهجو النساء وذمهن ... فقالت له زاجرة : (ولكن قف ! قف ! لا تذكر النساء لا فى النسيب ولا فى الهجاء ! فانك أول ما تذكر اسمهن يدور رأسك ، وينبض فيك العرق القديم !) [1] . وما أصدق وألطف ما وصف به نفسه على لسان امرأة حين قالت فى بعض محاوراتها معه : (وانه ليشم الأمور النسائية شما ، فان هو الا زير نساء .. !) [2] .

لقد كانت المرأة أحد الدافعين اللذين بعثا فارس الشدياق الى تأليف كتابه « الساق على الساق » وبناه عليهما ؛ وهما المرأة واللغة ، وما وقعت عينه على شيء الا تخيل المرأة وراءه بقوامها وقدها وقديدها ! بل بفتنتها وسحرها واغرائها ! وكان يرى النساء زينة الأرض كما تزين النيرات البهية قبة السماء ...

---

(١) الساق على الساق ــ ص ٣١٩

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢١

(ولو رأى سفينة ماخرة فى اليم وعليها شراعها ، لشبهها بامرأة ترفل بثيابها فى الطرق !) ، ولو لاقى امرأته مرة بعد فراق لاستروح منها دائما رائحة النساء [1] .

نعم ! لم ير الشدياق فى الدنيا كلها شيئا غير المرأة ، ويصفه النساء بأنهن (زخرف الكون ، ونعيم الدنيا وزهاها ، وغبطة الحياة ومناها ، وسرور النفس ومشتهاها ، وعَلَق القلب ، وقرة العين ، وانتعاش الفؤاد ، وروح الروح ، وجلاء الخاطر ، وتعلل الفكر ، ولهو البال ، وجنة الجنان ، وأنس الطبع ، وصفاء الدم ، ولذة الحواس ، ونزهة الألباب ، وزينة الزمان ، وبهجة المكان . بل أقول — غير متحرج — عرف الآلهة ، اذ لا يكاد الانسان يبصر جميلة الا ويسبح الخالق ... بذكرهن يلهج اللسان ، ولخدمتهن تسعى القدم ، وتتحمل الأعباء ، وتتجشم المشاق ، ويهون الصعب ، ويتجرع الصاب ، ويقاسى الضر ، ولرضائهن يذل العزيز ، ويبذل النفيس ، ويذال المصون . وأن خلاق الرجل من دونهن حرمان ، وفوزه خيبة ، وهناءه تنغيص ، وأنسه وحشة ، وشبعه جوع ، وارتواءه ظمأ ، ورقاده أرق ، وعافيته بلاء ، وسعادته شقاوة) ويمضى الشدياق فى وصفهن على هذه الصورة زاعما أنه مهما اثثالت عليه المعانى ، ولو استطاع أن يكتب مديحهن بجميع أصابعه ، وينطق به بكل جارحة من جوارحه ، لما وفى ذلك بمحاسنهن ...

---

(١) المصدر نفسه ٢٥٤

ويعود الشدياق فى موطن آخر من الفارياق فيؤكد ضرورة المرأة للحياة ، وقيام الدنيا كلها بها ؛ (فلولا المرأة لم يكن شىء فى الدنيا ، لا دين ولا غيره ... ولولا بنت فرعون لم ينج موسى من الغرق ... ولولا المرأة لم يولد سيدنا عيسى ولم يذع خبر انبعاثه ، ولولا المرأة لم يستتب مذهب الانكليز كما هو اليوم) [1] .

وليست المرأة خيرا كلها على العلات ، وفى جميع الحالات . فقد تكون أحيانا بلاء على الرجل وشقاء له ، وهذه المخلوقة التى خلقها الله من الرجل لتكون بمنزلة معين له على مصالحه المعاشية ، ومؤنس له فى وحشته وهمومه قد تستحيل عن صيغتها الأولوية ، حتى أن بلاء الرجل وهمه ووحشته ، ونحسه وشقاوته وحرمانه بل هلاكه يكون من هذه المرأة [2] .

فالمرأة فى نظر الشدياق مخلوق جمع بين النعمة والبلاء ، وبين الخير والشر (وقد حارت العقول فى السر الذى أودعه الله فيها ، من جهة أنها أول الأسباب فى عمران الكون وخرابه ! اذ لا يكاد يحدث فى العالم خطب جليل الا وتراها من خلله واقفة وراءه ، أو بالحرى مضطجعة !) [3] وقد استطاع بذكائه ومخالطته للنساء وتلطفه معهن فى الحديث أن يصل الى أغوار المرأة ، وأن يسبر منها ما لم يستطع آخر أن يفعله . وما ألطفه وهو يصور لنا مثلا

---

(١) المصدر نفسه ـ ص ٣٠٢

(٢) الساق على الساق ـ ص ٦٦ من الكتاب الثانى .

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٥

تلطف المرأة وحسن تأتيها مع الرجل حتى تنال منه ما تريد ، (فاذا مرت مثلا بحانوت بزاز ورأت بزا شفافا أترنجى اللون فأول ما تلمحه تقول لك : هذا يصلح لليل ! وربما كان فكرك وقتئذ فى كتاب تطالعه ، أو فى شراء حمـــار تركبه ! واذا رأت ديباجا أخضر قالت بديها : هذا يصلح للشتاء ! أو كتانا أبيض فاخرا خصصته بالصيف ! ثم اذا مرت بدكان جوهرى ـــ أو اذا تهوست أنت وأخذتها اليه ـــ قالت لك على الفور : هذا الحجر الماس يصلح لأن يجعل فصا فى خاتم للبنصر)[1] وما تزال الماكرة تغرى صاحبنا بجواهر الدكان واحدة واحدة ، وفكره لم يزل مشغولا بالحمار !!

ولتكن المرأة ماكرة ، أو فيها بعض الشر ، أو الكيد فهل يمنع ذلك الرجل من اعطائها حقوقها ؟ وهل كل ما للمرأة على الرجل أن يطعمهـــا ويكسوها ثم يمتن بذلك عليها (فمن ثم لاينبغى للرجل أن يحسب أن مجرد اطعامه المرأة والباسه اياها منة منه عليها ، فان حقوق المرأة أكثر من أن تذكر)[2] .

وأيسر حقوق المرأة عند الشدياق أن نعلمها ونزيل غشاوة الجهل عن بصرها وبصيرتها ، وأن نرسخ فى نفسها أنها كفء للرجل فى الدراية والمعرفة ، لا تقل عنه ، وبهذا تتترس المرأة وتتحصن عند الرجل فلا يتطاول عليها ، بل تجبره بهذه المعرفة

---

(١) المصدر نفسه ١٠٨

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢٥

على احترامها والشعور بفضلها [1] . ثم ان تعليم الفتاة يشغلها عن التفكير الخبيث فى الحيل التى تحاول بها أن تقع فى المكاره ، وأسمع عبارة الرجل فى هذا الصدد قائلا : (ولا يخفى أن البنات اذا كن جاهلات بالقراءة والكتابة وحسن المحاضرة ، وبآداب المجلس والمائدة وغيرها ، فلا بد وأن يتعوضن عن هذا الجهل بمعرفة الحيل والمكايد التى يتخذنها وسيلة لما يرمن . فان البنت اذا اشتغلت بقراءة فن من الفنون ، أو بمطالعة الكتب المفيدة صرفها ذلك عن استنباط الحيل ... فالأولى عندى — أنا العبد الحقير — أن تشغل البنت باحدى الفنون والعلوم النافعة سواء كان ذلك عقليا أو يدويا) [2] .

وكان صوت الشدياق من الأصـــوات العربية الأولى فى العصر الحديث — بل كان أول صوت — فى رد ما يقال من أن المرأة اذا عرفت القراءة والكتابة كان ذلك سبيل فسادها . وما كان أعقله — بل ما كان أعقل زوجه الفارياقية — وهى تتحسر على ما فاتها من العلوم ، فهى تلوم — فى تحسر — من تركوها بغير تعليم وتقول فى ذلك : (... ولكن الذنب على من غادرنى بغير تعليم . لأن العرب يزعمون أن علم القراءة مفسدة للنساء ، وأن المرأة أول ما تستطيع ضم حرف الى آخر تجعل منهما كتابا الى عاشقها ... مع أنها لو خُلّيت وطبعها كان لها من حيائها وحشمتها عاضل أشد من الأب والزوج ، بخلاف ما اذا حظرت

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٨

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٧

وحجرت فانهــا لا تنفك تحاول التملص والتفصى مما حصرت فيه) .. [1]

وأنت لا شك أدركت فى هذا الكلام رائحة تحرير المرأة ، وتذوقت طعما من الدعوة الى اخراجها من حبس المنزل الذى حكم عليها أن تكون سجينته فيه طوال قرون عديدة . وليست هذه أول مرة يرتفع فيها صوت الشــدياق بالدعوة لاخراج المرأة من محبسها ، ففى مواطن كثيرة من « الساق على الساق » ينادى بضرورة خروجها من ذلك السجن التقليدى الذى لم يعد له محل (فانى أرى صدر السيدة قد ضاق من الوحدة) (وكيف نرجو أن تكون السيدة وبناتها ذوات رشد ودراية ، وهن مقصورات فى الدار العامرة ؟) [2] .

ويتطرق الشدياق الى موضوع الحجاب والسفور والكتاب وتعليم المرأة قائلا : (ثم انك مهما بالغت فى أن تبرقع زوجتك عن رؤية الدنيا فلن تستطيع أن تخفيها عن قلبها ، فان المرأة حيثما كانت وكيفما كانت هى بنت الدنيــا وأمهــا ، وأختها وضرتها . لا تقل لى ان المــرأة اذا كانت شريرة لا يصــلحها الكتاب بل يزيدها شرة ، واذا كانت صالحة فما بها من حاجة اليه ...) [3]

---

(١) الساق على الساق ــ ص ٢١٢
(٢) الساق على الساق ــ ص ٢٣٩
(٣) المصدر نفسه ــ ص ٢٨١

ولم يكتف الشدياق بالدفاع عن السفور ومهاجمة الحجاب نثرا ، ولكن له بيتين يوضح فيهما أن البراقع والحجب ليست بجالبة للمرأة عفة ولا مانعة لها من الوقوع فى الهوى . وقد ابتكر فى معنى البيتين بما صرح معه أنه لا يظن أن أحدا سبقه اليه ، والبيتان هما :

لا يحسب الغر البراقع للنسا
منعا لهن عن التمادى فى الهوى
ان السفينة انما تجرى اذا
وضع الشراع لها على حكم الهوا

ومن هنا كان الشدياق أسبق الداعين الى رفع الحجاب عن المرأة ، وقد سبق فى هذه الدعوة المرحوم قاسم أمين بعشرات من السنين .

أما الدعوة الى تعليم المرأة وتنويرها بالعلم فلم يكن الشدياق أول دعاتها فى العصور الحديثة ، بل سبقه اليها رائد آخر من رواد النهضة هو بطرس البستانى ، فقد ألقى خطابا — أو خطبة — عنوانه : « تعليم النساء » وكان ذلك على أحد منابر بيروت سنة ١٨٤٩ ، وجعل المطالبة بتعليمها مطالبة بتحريرها مما كانت فيه من قيود الجهل التى ظلت ترسف فيها زمانا ، فكان ذلك الخطاب التاريخى أول مناصرة لحركة تحرير المرأة (وأول قنبلة فى حرب تحرير المرأة الشرقية) [١] .

---

(١) مصادر الدراسة الادبية — ليوسف أسعد داغر — ج ٢ ص ١٨٠

على أن دعوة الشـــدياق لرفع الحجاب عن المــرأة العربية والشرقية ولتعليمها واعطائها حقها فى الحياة لا يضيرها أن تجىء ثانية أو تالية لدعوة البستانى ، كما لا ينقص من قدر الدعوتين أن جاءت بعدهما بزمن دعوة قاسم أمين التى صادفت وقتها ، وكانت النفوس مستعدة لتلقيها أكثر من ذى قبل ، فآتت أكلها على الرغم مما أحاط بها من مناقشات وعقبات .

فى غمار المعارك

لم يكلف الشدياق نفسه أن يعيش هادئا ، فكأنما خلق للنضال والعراك والخصام والهجاء ، وكان ذلك طبيعة فيه ، حتى اذا لم يجد معتركا مع غيره جعل من نفسه مجالا للعراك . ويظهر أنه كان معتدا بنفسه الى حد بعيد ، وكان شديد الحساسية متوفزا للغضب من أدنى شىء ، فاذا غضب صب جام غضبه ، ونفث حمم غيظه هجاء مرا ، وسبا مقذعا ، وشتيمة بذيئة . وكانت ثروته اللغوية الغزيرة تواتيه دائما بما يسعفه فى هذا السبيل . وينسى الرجل هنا نفسه ، وينسى ما يجب أن يكون عليه العلماء من وقار وحشمة ، فيخرج عن الحد ، ويعدو عن الطور ، ويقذف خصمه بما لا يكاد العقل يتصوره . على أنه فى المعارك الأدبية لم يكن يصاول ويجاول ، ويحاور ويداور ، ولكنه كان خصما عنيفا يقطع السبيل على مناظره ومناقشه ، فلا يترفق به ، ولا يبقى شيئا من الود . ويحاول أن يكسب المعركة مع خصمه من أقرب سبيل ، فلا يلجأ الى التهكم معه والسخرية به حتى لا يطول به أمد المراس ، ولكنه يحاول أن يقضى عليه بضربة قاضية محاولة لاسكاته حتى لا يفكر بعدها فى الاجتراء عليه ، أو حتى فى الدنو منه .

وكان أيسر الظن برجل دنا من الملوك والرؤساء والعظماء في الشرق والغرب أن ينزه لسانه وقلمه عما يكره من مثله . ولكنه هكذا خلق . ويعلل لنا الأستاذ أنيس المقدسي سر هذه الظاهرة عند الشدياق بأنه رجل كان همه الشهرة والمجد العالمي عن طريق الأدب ، وأن نفسه كانت تكبر في عينيه ، فلا يطيق أن يرى منافسا ينازله في هذا الميدان ، فهو يهاجمه بقلمه ولسانه مرغيا مزبدا في هجاء قد يخرج عن جادة الاتزان الأدبي [1] ...

على أنا نرى أن مغالاة الانسان في تقدير نفسه قد تحمله على العجب والغرور والكبرياء مثلا ، ولكنها لا تكون قط مسوغا لحمل النفس على البذاءة والافحاش الا اذا كان ذلك آتيا من طبيعة النفس ذاتها ومن استعداد خاص فيها ، ومن نقص بها . ثم أين هي ضوابط النفس وعواصمها اذا لم تستطع أن تتحكم في المواقف التي تحملها على ارتكاب السباب والبذاء ؟

ومما يدهشنا ويحيرنا في الشدياق أنه كان عالما متمكنا في اللغة والأدب والنحو ، فلم يكن بحاجة الى أن يستعمل العنف والبذاء في مناقشاته مع أضرابه العلماء ، فان الشتم لا يكسب المعارك ، ولكن الذي يكسبها دائما هو الحجة والعقل والبرهان . ويصف لنا الأب أنطونيوس شبلي — الذي جمع ما دار بين الشدياق واليازجي من مناقشات — المترجم له بعد ذكر نماذج من سبابه فيقول : (انه يرمي بمثل هذه الألقاب والنعوت الأليمة

---

(١) الفنون الادبية وأعلامها — لانيس المقدسي — ص ١٤٥

كل رجل يعنيه من مناوئيـــه بدون أدنى تهيب أو تورع جريا على عادته)[1] .

ويخيل الينا أن الشدياق فى مناقشاته ومعاركه مع خصومه كان كالوحش الهائج ، أو أنه كان يريد حين يهاجم خصما أن يصيب منه مقتـــلا من أول ضربة ، حتى يخاف الآخـــرون فلا يجترءوا عليه ، اتباعا للمثل العربى الذى يقول : انج ســـعد ، فقد هلك سعيد !

ولقد كان فى استطاعة الشدياق أن لا يفقد عطف علماء عصره وأدبائه عليه لو أنه فلّ قليلا من شباة لسانه . فقد كان عنده من العلم والذكاء والصبر على البحث ما يحمله على هذا لو أراده . ولكنه لم يرده . وخسر كثيرا من مودة أفاضـــل العلماء فى وقته من أمثال الرائد بطرس البســـتانى ، والشيخ ناصيف اليـــازجى ، وولده الشيخ ابراهيم ، واللغوى الشيخ ســـعيد الشرتونى ، والكاتب الوطنى الحر أديب اسحـــاق ، ورزق الله حسون الحلبى الذى أنشأ مجلة جدلية صغيرة فى لندن سنة ١٨٦٨ وأسماها « رجوم وغساق ، الى فارس الشدياق » وكان الغرض الأصـــلى من انشائها (الرد على أحمـــد فارس الشدياق صاحب جريدة الجوائب ، لاطالة لسانه وتحريك قلمه بالسفاهة فى حق رزق الله حسون)[2] .

---

(١) الشدياق واليازجى — ص ٢١٠ بالهامش .
(٢) تاريخ الصحافة العربية — لطرازى — جـ ١ ص ٧٧

وقد انضم الى كتائب الخصوم فى معارك الشدياق الشيخ سليمان الحرائرى محرر جريدة « برجيس باريس » التى أنشأها فى باريس سنة ١٨٥٨ الأب فرنسيس بورجاد وتولى التحرير فيها لأول عهدها الكونت رشيد الدحداح اللبنانى . ولم تكن معركة صحيفة برجيس العربية الباريسية من أجل نقاش لغوى ، أو مناظرة أدبية وحسب بين الشدياق وبين محررها ، ولكن الدين فى هذه المرة كان عاملا مهما فى المعركة ، فقد غمزته الصحيفة بسبب تركه المسيحية واعتناقه الاسلام ، وحملت عليه متهمة اياه فى دينه . ومن عجب أن الحملة كانت من الشيخ الحرائرى التونسى المسلم الذى كان يشتغل بالأجر محررا عند الأب بورجاد الكاهن اليسوعى الفرنسى وصاحب البرجيس . واتهمت « البرجيس » صاحبنا الشدياق أيضا بأنه كان خادما ذليلا للسلطان العثمانى . ولم يطق الشدياق صبرا على هذا فهجا البرجيس ومحررها الحرائرى قائلا :

يأيها الفقهاء أفتوا مؤمنا
فالعلم من سيمائكم والدين
أى الأنام يرى الشحاذة حرفة
وبكل فعل منكر مأفون
هل خادم السلطان وهو مكرم
أم خادم القسيس وهو مهين ؟؟

ومعركة الشدياق مع برجيس باريس من أعجب المعارك الأدبية وأطرفها ، فقد كان ميدانها مدينة باريس من ناحية ،

والآستانة من ناحية أخرى ــ حيث مقر الجوائب ــ وكان من أطرافها المعتركين شيخ تونسى ، وكاهن يسوعى ، ولغوى لبنانى . ويشاء الله أن يدخل فيها آخر الأمر طرف مصرى هو العالم الشيخ عبد الهادى نجا الأبيارى من أدباء عصر النهضة فى مصر ، ولكنه دخل حكما مصلحا ، وقاضيا عادلا ، ووسيطا يحاول الاصلاح بين الخصمين ، وكان كلامه فصل الخطاب فى القضية ، مما حمل الشدياق على أن يمدحه بقصيدة يقول فيها :

أبدى لنا فى مصر نجما ثاقبا
لكن سناه بكل مصر هاد
فيه الفوائد والفرائد فصلت
موصولة البرهان بالأسناد
هو فيصل فى الحكم يرضى فصله
من كان لم يقنع من الأشهاد .. [1]

ومن عجب أن هؤلاء الخصوم فى المعارك كانوا قبل الخصام يتبادلون الود والتقدير ، بل كان بعضهم يتقارض المدح مع بعض . فأديب اسحاق كان موضع الاعجاب والثناء من الشدياق قبل ابتلائهما بالخصومة ، وناصيف اليازجى كان يمدح الشدياق بالشعر الجيد قبل محنة العداوة . ولعل الطريقة التى قدمت بها هذه المدحة اليازجية فى ديوان الشيخ ناصيف كانت السبب فيما قام بينهما من خصام . فقد قدم ناصيف اليازجى القصيدة فى

---

(١) تاريخ الصحافة العربية ـ لطرازى ـ ج ١ ص ٦٢

ديوانه لما طبع قائلا : (وقال يمدح أحد الأدباء) فغضب الشدياق لهذا التنكير والتجهيل له ، وعده مقصودا من الشيخ ناصيف وبهذا فسد جو الوداد ما بين الصديقين ، وقامت المعارك بينهما وكان ميدانها جريدة الجوائب للشدياق ، وصحيفة الجنان لبطرس البستانى . وانضم اثنان من علماء المسلمين الى الشيخ أحمد فارس انتصارا له ومناجدة ، وهما الشيخ ابراهيم الأحدب ، والشيخ يوسف الأسير — وكانا من علماء النهضة أيضا — ووقف كل واحد من هؤلاء فى المعركة يتربص بخصومه الدوائر ... فلما نظم الشيخ اليازجى قصيدته التى مطلعها :

لا تبك ميتا ، ولا تفرح بمولود
فالميت للدود ، والمولود للدود

انتقدها الشيخ يوسف الأسير ، وأسماها — على سبيل التهكم والسخرية « القصيدة الدودية » !

ومات الشيخ ناصيف اليازجى سنة ١٨٧١ وفى نفس الشدياق منه أشياء ... ولكنه لم يستطع أن يسكت عن رثائه فى صحيفة الجوائب ، ولكن طبيعة طول اللسان فيه حملته على أن ينتقده لغويا فى مقام كان ذكر المحاسن فيه أولى من تصيد المساوىء ... ومن نقده له تخطئته فى ضبط كلمة « فطحل » التى وردت فى كتاب « مجمع البحرين » لليازجى مضبوطة بسكون الطاء والصواب تحريكها — ولعل ذلك من أخطاء الطبع ... فقام الشيخ ابراهيم اليازجى يدافع عن والده وينتصر له على صفحات مجلة « الجنان » لبطرس البستانى . وهنا عادت

للشدياق شرته ، ففتح صدر جوائبه للسباب فى البستانى وفى الشيخ ابراهيم اليازجى ، ولو أنه رد النقد اللغوى بالرد اللغوى لكان أكرم ، ولكنه أخذ يقول فى البستانى : (هو أبو الحسد ، الذى قاده الغرور بحبل من مسد ، وتناءى به الافتراء الى أبعد أمد ...)

ويقول فى ابراهيم اليازجى : (... فهو صاحب السفاهة الكبرى ، والقذف والافتراء ... وقد بلغنى ممن يوثق بكلامه أنه من أهل الأسواق ، وأولاد الزقاق ، وأنه حاول أن يدخل أحد المكاتب ليتعلم فيها بعض العلوم الابتدائية ، وحيث كان خامل القدر ، منسى الذكر ، أراد أن يحصل على شهرة بتخطئة صاحب « الجوائب » ، فحصّل ما أراد ، وان كان عن طريق الفساد ، لأنا قبل وقاحته لم يكن لنا علم بوجوده ..) [1]

لقد كانت سن الشيخ ابراهيم اليازجى حينما أذن الله أن تنشب هذه المعركة حوالى الرابعة والعشرين ، وكان الشدياق يزيد عمره على الرابعة والستين ، فهو شيخ قارح ، وهو معوّد على أمثال هذه المعارك ، فلا يستحيى أن يدخلها ويخرج منها الى غيرها ، « كالفتوات » من أبناء البلد الذين يخوضون المعارك فى الأحياء بلا حساب . ولقد جزع اليازجى الابن — وهو غض العود عف اللسان سليم العرض — أن يدخل معركة لا يدرى ماذا يكون من ورائها ، فانسحب منها على الفور

(١) الفنون الادبية وأعلامها — لانيس المقدسى . ص ٤٤٥

قائلا بيتيه المشهورين اللذين يمثلان لنا أدب نفسه وحياءه وخلقه الكريم . وهما :

ليس الوقيعة من شأنى فان عرضت
أعرضت عنهـا بوجه بالحيـاء ندِى
انى أضنّ بعـرضى أن يلمّ به
غيرى ، فهل أتولَّى خرقه بيدى ؟ [1]

والحق أن دفاع ابراهيم اليازجى عن أبيه فى « الجنان » البستانية كان مثلا فى الرد الموضوعى المهذب العفيف . ولعل أقسى ما كان فيه هو قوله عن الشدياق العالم الكبير السن : (ولقد كنت أحسب أن تمادى الأيام قد حان له أن يهـذب من أخـلاقه ، ويمكن عنده أسباب العلم والدماثة والصـبر على المكروه ، فأكثر مما أرى من نفسه هذه المرة . فاذا دمه لم يزل على حـرارته المعهـودة ، أيام كانت تلك النار تقـرى بفحم الشباب ...) وقد هاج الشدياق لهذه العبارة ورد عليها قائلا : (أقول : هذه سفاهة بستانية سوقية ، ومهاترة جنانية زقاقية ... وجوابها الأخير :

يا ليت لى من جلد وجهـك رقعـة
فأقد منهـا حافـرا للأشـهب !) [2]

أما اللغوى الشيخ سعيد الشرتونى ــ صاحب معجم أقرب

---

(1) تاريخ الصحافة العربية لطرازى ــ جـ ١ ص ٦٣ ، و « الشيخ ابراهيم اليازجى » لعيسى سابا .
(2) صقر لبنان ــ لمارون عبود ــ ص ١٨٤

الموارد ــ فقد منى بعداوة الشدياق وخصومته ، لأنه انتقد كتابا للشيخ عنوانه : «غنية الطالب ، ومنية الراغب » فى علوم النحو والصرف والمعانى ــ وهو كتاب مدرسى كان قد ألفه فى مصر . وجمع الشرتونى نقده لغنية الطالب فى كتاب أسماه « السهم الصائب ، فى تخطئة غنية الطالب » . وقد اتسع نطاق المعركة حول هــذا الكتاب فدخلها الشيخان المسلمان يوسف الأسير وابراهيم الأحدب فى جانب الشدياق ، وبطرس البستانى وابراهيم اليازجى فى جانب الشرتونى .

ولعلك فطنت أيها القــارىء الكريم الى العــامل الدينى والطائفى فى هذه المعارك ، مما نتركه لصحة استنباطك ، ولا نحتاج معه الى تعليق طويل ...

مكان الشدياق فى النهضة الأدبية والتجديد

لم يكن فارس الشدياق صاحب مكان عادى فى النهضة الأدبية العلمية فى القرن التاسع عشر ، ولكنه كان صاحب مكان مرموق فيها . ويكاد المؤرخون ومؤرخو الآداب العربية يجمعون على أنه كان واحدا من أركان تلك النهضة وأساطينها ، ودع عنك مغالاة المعجبين به ، فقد يحملنا حبهم الشديد للرجل على أن نتهمهم بالاسراف فى التقدير ، والقاء العبارات بدون ميزان . ومن هؤلاء المعجبين الأستاذ مارون عبود الذى كان أول عربى اهتم بتأليف كتاب مستقل عنه بعنوان «صقر لبنان» بعد الرسالة التى كتبها الباحث بولس مسعد ونشرها فى مصر سنة ١٩٣٤ بعنوان « فارس الشدياق » .

وقد نظمه جورجى زيدان فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » فى سلك علماء اللغة فى النهضة الأخيرة — يعنى نهضة القرن التاسع عشر — وأشار فى تمهيده لباب علوم اللغة الى نظره فى اللغة نظرا تحليليا ، والى وصفه لكتابه « سر الليال فى القلب والابدال » على نسق جديد ، كما أشار الى تأليفه لكتاب « الساق على الساق فيما هو الفارياق » على أسلوب جديد فى اللغة العربية ، وعرفه فى ترجمته الوجيزة له بأنه « من أركان النهضة العلمية الأخيرة » .

ويعد الشدياق من المجددين فى الكتابة العربية وتخليصها من العيوب التى كانت فيها فى عصور الانحطاط والتدهور ، واذا تجاوزنا قليلا عن سجعه الذى كان يستعمله أحيانا فى الكتابة فان طريقته المرسلة تعد نموذجا عاليا للكتاب ، ومع تحريه السهولة فى التعبير فانه لم يكن يهبط بعبارته الى ركاكة أو ضعف ، ولكنك كنت تجد عنده البيان المشرق . ولعل هذا هو الفرق الواضح بينه وبين بطرس البستانى زميله فى ريادة النهضة ، فقد كان فى البستانى تسمح فى التعبير ، وترخص فى الألفاظ ، على حين كان الشدياق دائما على طبقة عالية . وقد أحسن الأديب الذواقة المرحوم حسن السندوبى فى وصف طريقته الرائدة فى الكتابة قائلا : (وأما الكتابة فله فيها آيات التجديد ، ومعجزات الابتكار . وكان ميالا فيها الى السهولة وسلامة التعبير ، منطبعا على الرقة فى ألفاظه ، والدقة فى معانيه ، والبصر بمواقع الكلم ، صعب مراس المناظرة ، اذا عن له أمر أحاط بأطرافه تبيانا وافصاحا ، حتى لا يكاد يرى له فيه كلم ، أو يلمح له ثغر ينفذ منه اليه) [1] .

وقد أفاد كثيرون ممن جاءوا بعد فارس الشدياق من طريقته فى الكتابة ، مما أفضى بعد ذلك الى حركة التطور والتجديد فى النثر الحديث وانعتاقه جملة من السجع والمحسنات والصور الكلامية الفارغة التى لا تحمل دلالة حقيقية للمعانى المراد التعبير

---

(١) أعيان البيان ـ لحسن السندوبى ـ ص ١١٥

عنها . ولا شك أن الشدياق كان واحدا من قلة قليلة من رواد النهضة الذين علموا الناس كيف يكون الأداء الكتابى للمعانى والموضوعات بمقــدار وبحساب . فألفاظه على قدر معــانيه ، لا تتسع عليها ولا تغدو مهلهلة فضفاضة . وهذه القدرة على الباس المعانى ما يناسبها من الألفــاظ عند الشدياق ؛ يضاف اليهــا الدقة فى الوصف قد أحسن تناولهما الأســتاذ أنيس المقدسى فى الفصل الذى خصه به فى كتابه [1] . ولهذا كان حكمه على الشدياق ومكانه من النهضة العربية حكما صحيحا سليما حين يقول : (... ومن الانصاف أن تقرر أن شوائبه الخلقية لا تمنعنا من وضعه فى المنزلة اللائقة به ، كرائد من أكبر الرواد ، وكجبار من جبابرة اللغة والأدب . فقد كانت له يد طولى فى النهضة العربيــة التى ظهرت فى القــرن التاسع عشر ، فمهدت السبيل للتقدم الأدبى العظيم الذى عرف به القرن العشرون) [2]

ومن دلائل الزعامة الأدبية للنهضة الأخيرة عند الشدياق ذلك « التجديد » الذى أضفاه على كل فن دخل فيه ، أو لون كتب به . فهو مجدد فى النضال وحركات التحرر ، ويكفى أنه هو وزميله فى الزعامة الفكرية بطرس البستانى كانا أول من لفت الأنظار ، ونبه الأذهان الى تحرير المرأة العــربية ورفع الحجاب عنها ، وتنويرها بنور العلم والمعرفة ، وكانا أول من نادى بحقوق المرأة العربية فى الحياة الكريمــة وانزالها المنزلة

---

(١) الفنون الادبية وأعلامها .

(٢) المصدر نفسه ــ ص ١٤٨

اللائقة بها فى البيت والأسرة والمجتمع . وهو مجدد فى الصحافة حين دخل ميدانها بصحيفة « الجوائب » فكان مثال الصحافى العصرى : سرعة فى الأخبار ، وذكاء وتفطن الى الأحداث ، وتعمق فى الموضوعات ، وتأصيل لأدب المقال والرأى فى الصحيفة ، وتوكيد للعلاقات بين الجريدة وقرائها ، وفتح لميادين جديدة فى التحرير والتبويب ، وطرافة فى الأسلوب ، مما جعل للجوائب مقاما ملحوظا فى العالم كله .

وهو مجدد فى « الطباعة العربية » بما أدخل فيها من وسائل التحسين والاتقان والدقة وجمال الاخراج والتصحيح الدقيق . فلم يرض أن تكون جريدته « الجوائب » عالة على المطبعة السلطانية ، فاشترى لها مطبعة خاصة ، كانت من خير المطابع فى وقتها ، وأسماها مطبعة الجوائب . وهو مجدد حين اتجه الى ميدان نشر الكتب فكان يتخير الكتاب المراد نشره بمقاييس العالم الخبير بقيمة الكتب وأهميتها . وهو مجدد فى أسلوبه الكتابى ، فاستطاع فى جرأة الرائد ، أن يهجر أساليب القدماء والمقلدين من المتعبدين بالألفاظ ، وارتضخ أسلوبا جديدا طريفا واضحا مترسلا دقيق الأداء ، سهلا مع علو طبقته فى اللغة والبيان .

فالرجل كان حركة دائبة متقدمة الى الأمام ، لا يود أن يقف حتى لا يأسن ، كالماء الراكد ، وقد بلغ من طماحه فى التجديد أنه حاول أن يجدد فى الشعر ، فينظم شعرا مختلف القوافى ، بدلا من النظم على قافية واحدة ، ولكن المحاولة لم تنفع هذه المرة ،

ولكن تعليله لهذه المحاولة فى الشعر يدلنا على طبيعة الرجل وتعارضه مع الجمود فيصرح لنا بأنه فعل ذلك تهافتا على احداث شيء غريب [1] . ومع ما كان فى الرجل من نزوع الى التجديد فان شيئا من القديم كان يشده اليه ، ولعل طبيعة العصر وظروفه لم تساعده على الانطلاق فى التجديد جملة واندفاعا ، فقد كان الرجل سابقا لعصره ، ولهذا سار فى غير اندفاع ...

وما أصدق الأستاذ عمر الدسوقى وهو يوجز الحكم عليه بقوله : (فهو من رواد النهضة الحديثة فى الأدب ، وممن سبق بفكره ، وقلمه ، وعلمه ، أبناء زمانه ، لكثرة ما قرأ ، وجرب ، ورأى بعينيه ، وسمع بأذنيه : لأنه جاب بلادا عديدة ، وعرف لغات شتى ، وأفاد مما رأى ، ومما قرأ وعرف ، فكان نادرة من نوادر عصره) [2] .

قلنا قبل هذا ان كثيرين ممن جاءوا بعد الشدياق أفادوا منه فى طريقته فى الكتابة . فهذا الأمير شكيب أرسلان يكتب كتابه « تاريخ غزوات العرب فى أوربا » فيتأثر بالشدياق فى ناحية الاعتناء بالآثار والرسوم والحفريات ، وينقل عنه كثيرا مما ذكره فى كتابه « الواسطة فى أخبار مالطة » [3] ، كما ينقل عنه بعض الكلمات التى كانت تدور على ألسنة أهل مالطة فى عصره .

---

(١) صقر لبنان — ص ١١٤

(٢) فى الأدب الحديث — لعمر الدسوقى — ج ١ — ص ٧٧

(٣) وهم الأستاذ أحمد الشرباصى فأسماه « الواسطة فى أحكام مالطة » — انظر كتاب (أمير البيان شكيب أرسلان) للشيخ أحمد الشرباصى ص ١٤٠

ولم ينكر الأمير شكيب اعجابه بأحمد فارس الشدياق وتأثره به فقال عنه : (امام اللغة وفارس ميدان الانشــاء الذى عرفته بآثاره ، وقطفت من نواره) [1] . وفى الفصل الذى كتبه الأستاذ أحمد الشرباصى عن الرجال الذين أثروا فى أسلوب الأمــير شكيب أرسلان يذكر لنا كيف (تأثر بالشدياق أيضا فى كتابه « الحلل السندسية » حينما يتشبه به فى الدفاع عن العــرب وحضارتهم فى الغرب ، وتصوير ما كان لهم من مجد ، وبذلك يكشف لنا شكيب عن أثر الشدياق فى كتابته) [2] . وحسب الرائد فى أهله أن يجد منهم من يسلكون سبيله ، ويتــأثرون خطاه . ولا يهمه بعد ذلك أن يجىء فى الترتيب أولا أو ثانيا . أو أن يكون منفردا أو مع جماعة من زملائه الرواد .

وقد يحمل التحمس لشخص بعض أنصاره على انكار بعض مزايا الآخرين ... ولا شك أن الأستاذ مارون عبود كان شديد التحمس للشدياق حين جعله (أول من وضع لنا المصطلحات الحديثة) ، فتناسى بذلك فضل الشيخ رفاعة الطهطاوى وأوليته فى هذا السبيل ، وان كان الشدياق أكثر توفيقا من معــاصره الطهطاوى فى اختيار اللفظة للترجمة مع ايجازها وحسن أدائها للمعنى المراد وخفتها على النطق . فكثيرا ما اضطر رفاعة الى ترجمة الكلمة بجملة [3] ، (وكان يفسر بعض الكلمات التى لا يجد لها مقابلا فى العربية بقدر ما يستطيع) .

---

(١) رواد النهضة الحديثة لمارون عبود ـ ص ١١٤

(٢) أمير البيان شكيب أرسلان ـ لاحمد الشرباصى ـ ص ١٤٠

(٣) رفاعة الطهطاوى بك ـ للمرحوم الدكتور أحمد أحمد بدوى ـ ص ٢٥٩

على أن محبا آخر للشدياق ــ وكلنا نحبه ــ كان معتدلا غير مسرف فى الحكم على مكانته ومكانه من النهضة حين قال : (وصفوة ما يقال فى فارس الشدياق أنه من أكبر علماء الشرق الذين نشأوا فى القرن التاسع عشر . وهو فى اعتبار أئمة اللغة أقدر من عاصره من كتابها ، وأرسخهم قدما فى قواعدها ، وأقدرهم على نفع طلابها بصرف أذهانهم عما يعد حشوا الى ما يحلو ويصلح من لبابها . وهو من أولئك الرجال الذين لا تسعد حال الأمم الا بهم ، ولا تنهض البلاد التى تلتمس الرقى الصحيح من دونهم) [1] .

---

(١) فارس الشدياق ــ تأليف بولس مسعد ــ ص ٤٢

نهاية المطاف

ظل الشيخ أحمد فارس الشدياق طول حياته يجوب الأرض ، ويتنقل بين الشرق والغرب ، فهو يوما بلبنان ، ويوما بمصر ، ويوما بمالطة ، ويوما بانجلترة ، ويوما بباريس ، ويوما بتونس ، وأخيرا استقر بعاصمة الخلافة العثمانية بضعة وعشرين عاما لم يغادرها الا حين جاء الى مصر زائرا سنة ١٨٨٦ بعد أن شيبته الأيام ، وأوقرت ظهره السنون ، ولكنه لم يفقد حتى ذلك الحين ذكاءه ولا خفة روحه ، ولا حضور بديهته ، ثم عاد الى الآستانة بعد أن تمتع فى مصر — التى أحبها — من شميم العرار ، فما كان بعد العشية من عرار ...

وفى الآستانة كان الشيخ فى مصيفه « بقاضى كوى » ، فاعتل علة أحس معها بدنو الأجل وقرب النهاية ، فبعث يطلب ابنه « سليما » وكان فى العاصمة الفرنسية . وتضطرب الروايات فى الذين كانوا محيطين بالشدياق حول سرير موته ، فمن قائل انه الأستاذ نجيب هندية أحد المحررين فى جريدة « القاهرة » التى أنشأها سليم الشدياق بعد نقل الجوائب الى عاصمة وادى النيل ، ومن قائل ان الذى كان ملازما له وحاضرا وفاته هو «خليل يعقوب» الذى كان يصحب المترجم له منذ سنين عديدة . والى خليل يعقوب هذا تعزى الشهادة التى رواها الأب لويس

شيخو اليسوعى حول طلب الشيخ أحد كهنة الأرمن الكاثوليك ليعترف له بخطاياه ... ولم ترد هذه الشهادة فى كتاب من الكتب التى ترجمت للشدياق الا كتاب « تاريخ الآداب العربية فى القرن التاسع عشر » للأب لويس شيخو . وفى هذه الرواية تهافت ويبدو عليها الافتعال ، ولو كانت صحيحة لذكرها الباحث بولس مسعد فى كتابه المفيد الذى كان أول رسالة كتبت فى سيرة « فارس الشدياق » .

وشاء الله فى مساء ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٨٧ أن يطبع فارس الشدياق قبلة على جبين ولده سليم ثم يتكىء بعدها على الوسادة ، ويغفو اغفاءة يستيقظ منها لصحوة الموت ... وكثيرا ما وصف لنا الشدياق فى « الفارياق » لذاذة القبل وحرارتها ، وحلاوة الأنفاس ! ولكنه لم يصف لنا قبلة الوداع فى آخر عهد الانسان بدنياه ..

وكان الشدياق الذى لم ير لبنان منه ومن شخصه مثل ما رأت بلاد الله ، قد أوصى أن يدفن فى وطنه ، وأن تكون أول أرض مسّ جسمه ترابها هى آخر أرض يطويه فيها التراب .

ويظهر أن التنقل والرحل التى كانت ملازمة للشدياق فى حياته ظلت تصاحب جسده بعد مماته . ولعل من سخريات الأقدار أن يحنط جسمه ويوضع فى تابوت من الرصاص مغلف بآخر من خشب الجوز الثمين ، ثم يودع فى القصر الذى مات فيه بالمصيف ، ثم ينقل الى قصر ولده سليم الذى كان مجاورا لمبنى نظارة المعارف فى استنبول ، ثم ينقل بعد أيام الى لبنان

حيث دفن فى مسقط رأسه : « الحدث » مع أجساد الموتى من أسرته ، ثم ينقل بعد ذلك الى مقبرة خاصة فى محلة « الحازمية » قرب مدينة بيروت !! حيث ابتاع له أهله أرضا ليدفن هناك [1] .

سلسلة طويلة من الرحلات والجولات يقطعها جثمان فارس الشدياق ، كما كان جسمه الحى يقطع الأرض طولا وعرضا ، ويذرع البحار ... ويذكرنا تشابه الحالتين هنا بتشابه حالتى ذلك المرثىّ الذى رثاه الشاعر « ابن بقية » بالقصيدة التى مطلعها : علو فى الحياة وفى الممات .. والتى يقول فيها البيت الآتى الشاهد على تشابه الحالين :

وتوقد حولك النيران ليلا　　كذلك كنت أيام الحياة !

أستغفر الله ! لا أقصد المشابهة بين المرثى هنا وبين فارس الشدياق ، ولكن أقصد أن أحوال الحياة قد تختلف على الموتى ، كما كانت تختلف عليهم وهم أحياء ...

ويظهر أن الشدياق بعد وفاته لم يشأ ربه أن يحرمه المظاهر التى كان كلفا بها فى الحياة بعد أن اتصل بالخديويين والأباطرة والملوك والرؤساء .. لقد بعث اليه باى تونس ــ كما ذكرنا قبلا ــ بارجة حربية خاصة يستقدمه عليها الى بلاده مبالغة فى تكريمه ... ولما جاء الى مصر قبل وفاته بعام استقبله الخديو توفيق أحسن استقبال ، وكانت مظاهر التكريم والحفاوة تستقبله فى كل مكان . وكان الملوك ورؤساء الدول يكاتبونه

(١) فارس الشدياق لبولس مسعد ــ ص ٢٦

ويدعونه بلا تكلف ولا رسميات ... لقــد كانت جنــازته فى الآستانة موكبا رائعا جمع بين رجال العلم وأقطاب السياسة ، وأرباب الأقلام ، وأصحاب السيوف ، ومشــايخ الاســلام ، وأرباب الطرق الصوفية ، ورجال الأديان ، والصدور العظام (فكان مشهدا فخما رائعا قلما شهدت الآستانة مثله) [1] . وكانت جنازته فى بيروت ــ فى الخامس من أكتوبر ــ موكبا فخما رائعا سار فيه العلماء والعظماء ورجال الدين ، وعلى رأسهم الشيخ عبد الباسط الفاخورى مفتى بيروت ومؤلف السيرة النبوية ومختصر تاريخ الاسلام [2] ، ثم ساروا به فى مشــهد عظيم الى الجامع العمرى الكبير .

ولعلك ــ مثلى ــ أيها القارىء الكريم تمر بنبأ القصر الذى مات فيه الشدياق باستنبول ، وقصر ولده الذى نقل اليه جثمانه هناك ، فتبتسم ابتسامة السخرية من مفارقات الحياة ! فلعلك عرفت مما سبق من فصول فى هذا الكتاب أن الشدياق عانى الفقر حينا ، وكابد المشقات أحيانا ، وأنه لم يصلح حاله الا بعد أن تعرف الى باى تونس ، وسلطان تركيــا ، وخديو مصر ، وسفير انجلترة فى عاصمة آل عثمان !! أما ما قبل ذلك فقد كانت له أشعار بعنوان (الغرفيات) يصف سوء حاله فى الغرف التى كان يسكنها فى مصر ومالطة ، بل وفى باريس نفسها قبل أن

---

(١) فارس الشدياق : لبولس مسعد ــ ص ٢٥

(٢) الاعلام لخير الدين الزركلى .

يكثر المال بين يديه ، وينتهى الجاه اليه . فقد كان يتخير الغرفه العليا القريبة من السطوح فى العاصمة الفرنسية لرخص ايجارها ، ومن شعره فى ذلك :

نعم ! لى غرفة عليا ، ولكن بأسفل سافلين هبوط نجمى
فكيف أطيق أصعد مرتقاها وأحمل حمل أشجانى وهمى ؟

وهذه الأحمال من الهم التى لا يستطيع معها ارتقاء غرفته ، تذكرنا بهموم شاعرنا المصرى الخفيف الروح التى رأى فيها ما يغنيه عن بناء سقيفة لقبره من الطوب والحجارة ، فقال مستنجدا دافنيه :

أقول لهم فى ساعة الدفن خففوا
علىّ ولا تلقوا الصخور على قبرى
ألم يكف همٌ فى الحياة حملته
فأحمل بعدالموت صخرا على صخرى !؟

وأثار موت فارس الشدياق من الحزن عليه ما يليق بمثله من الراحلين الذين أدوا فى الحياة رسالتهم ، وملأوا الدنيا حولهم بالعمل المجدى ، والكفاح الموصول ، والأثر الباقى . وبكاه الناس ، ورثاه الذين يجيدون الرثاء فى أمثال هذه المواقف من الشعراء والأدباء . وكثرت فيه المراثى الى حد أن « يوسف آصاف » صاحب جريدة « المحاكم » جمع ما وصل اليه منها وطبعه فى كتاب عنوانه « هو الباقى » ثم ما فتئت المراثى الجديدة تتوالى على صاحب المجموعة الأولى بعد تمام طبعها .

ويعلق المؤرخ جورجى زيدان على ذلك قائلا : (وبالحقيقة ان الرثاء وان كثر قليل فى جانب ما يليق بمقام هذا الفقيد) [1] .

ومات فارس الشدياق ، وطوى الموت ما بينه وبين الناس من أسباب العداوات . ونسى أصحاب النفوس الكبيرة — أمام الحتم المجاب الذى لا مفر منه — ما كان بينهم وبين الفقيد من صغائر الحيـاة . فاذا بالخصومات تزول ، والخلافات تنسى ، والحسنات تذكر ، والمآثر تنشر ؛ واذا بنا نرى الشيخ سعيد الشرتونى — صاحب معجم أقرب الموارد — وناقد كتاب « غنية الطالب » للشدياق وخصمه فى معارك النقد — يعرض عن ذكر الماضى ومساوئه جانبا ، ويذعن للواجب من ناحية ، وللانصاف من أخرى ، فيرثى الشدياق بقصيدة يقول فيها :

ان المنيـة أنشـبت بالكاتب
أظفارها ، فغـدا سريع معـاطب
قد كان يلعب بالعقـول بيـانه
لعب المدامة بالنزيف الشـارب
ليس الجدال بمـا نعـى عن حقـه
وأرى رثاه اليـوم ضربة لازب
أبقى « الجوائب » شاهدا من بعده
يقضى له بالفضـل غـير موارب
كانت عليهـا كالعيـال جـرائد
ترجو لقـاها كالحبيب الغـائب

(١) تراجم مشاهير الشرق — لجورجى زيدان .

كنــا نود معــاده ، ويــوده

فأتى الحمام فحــال دون رغائب

واذا كان هذا الشعر قد جرى على مذهب التقليد الركيك — لأن الشرتونى كان لغويا وناظما ولم يك يحسن الشعر — فان فيه من ظواهر الوفاء والخلق والانصاف ما كان من فضــائل الناس فى ذلك الزمان .

ولم يكن سعيد الشرتونى الا واحدا من شعراء كثيرين رثوا المترجم له على قدر ما اختص به كل منهم من طاقات الشــعر الرصين المعبر غير المقلد أو المقلد على السواء . ولسنا بسبيل انتقاد ما قيل فى الشدياق من مراث ووضعها فى موازين النقد ، فليس هذا مكانه . ولكنا نقول ان شاعرا واحدا ممن نشرت مراثيهم فى الكتب التى ترجمت للشدياق لم تهز قصيدته أوتار القلوب غير الأمير الشاب شكيب أرسلان [1] ، فقد كانت قصيدته أجود ما قيل فى رثاء الشدياق مما يؤكد سلامة الفطرة الشاعرة عند الأمير شكيب منذ بدايته ، أما بقية القصــائد فكانت من الشعر التقليدى الذى لا تشبّه عاطفة ، ولا يؤجحه انفعال ... حتى قصيدة الشيخ على الليثى — وكان معــدودا من كبــار الشعراء بمصر فى عصره — لم تخرج عن كونها رص ألفــاظ ، ومحسنات كلام . وفيها يقول مشيرا الى بعض مؤلفاته : —

---

(١) كانت سن الأمير شكيب أرسلان فى ذلك الحين سـبعة عشر عاما فقــد ولد فى سنة ١٨٧٠ ، كما عند يوسف أسعد داغر ، أو فى سنة ١٨٦٩ كما يذكره الأستاذ أحمد الشرباصى وهو التاريخ الصحيح .

كانت زواهر فكره عنــد السرى
نــورا ونارا للسرى القــابس

« كشف المخبأ » واستنار بفكره
« سر الليالى » فى سماء مدارس

وأبان « جاسوس » التفكر والنهى
عن در « قاموس » دنا من لامس

هل غير أحمــد فى ميــادين العلا
أجرى اليراع وقال : هل من فارس ؟!

جابت « جوائبه » البلاد فواصلت
بين المسوس وبين أعظم سائس ...

أما مرثية الأمير شكيب أرسلان فكانت من القافية نفسها ، ولكن من البحر الطويل ، وان كان قد عنى فيها أيضا بالمحسنات البديعية على عادة شعراء العصر كله . وفيها يقول :

هو الفارس الســباق فى كل حلبة
تجمع فيهــا كل قرم ممارس

اذا صال لم يترك مصــالا لفارس
وان قال لم يترك مقــالا لنابس

أقام منــارا هــاديا كل حائر
وأوقد نارا أمهــا كل قابس

ولقد وهم الأستاذ أحمد الشرباصى حين ذكر فى رســالته

العلمية الجليلة [1] عن « الأمير شكيب أرسلان » بيتين قال انهما من الشعر الرائع لشكيب فى رثائه للشدياق ، وهما :

الموت حتم والمسافة بيننا   نزر ، وما من قادم ببعيد
يتخيل الانسان أبعد مطمح   والموت منه مثل حبل وريد

وليس ذلك كذلك ... فالبيتان من قصيدة للأمير شكيب أرسلان رثى بها « المرحوم محمود بك نجل المرحوم ابراهيم فخرى بك ، وشقيق صاحب السمو أحمد نامى بك » كما يقول الأمير نفسه فى تصديرها [2] . وقد أوهم الأمرَ على صديقنا المحقق الفاضل الأستاذ الشرباصى ورودُ القصيدتين السينية والدالية متعاقبتين فى الديوان ، مما قد يحمل على الظن ـــ لغير المتفرس ـــ أنهما فى مرثى واحد ..

ولقد اشترك فى رثاء الشيخ أحمد فارس الشدياق جماعة من كبار الشعراء فى عصره ، منهم سليمان الصولة من كبار شعراء الشام فى وقته وكان شاعر الأمير المجاهد عبد القادر الجزائرى ، وأحمد عزت الفاروقى الشاعر العراقى الباحث المؤلف ، وهو من أهل الموصل النابهين ، والعالم التونسى الشيخ أحمد الأديب ، ومؤرخ الصحافة العربية فيليب نصر الله طرازى صاحب التاريخ المشهور ، والشيخ نعمان الألوسى من علماء بغداد ، والشيخ يوسف النبهانى الأديب الشاعر الفقيه اللبنانى الذى كان رئيسا لمحكمة الحقوق ببيروت ، والشيخ يوسف

---

(١) أمير البيان شكيب أرسلان ـ للأستاذ أحمد الشرباصى ـ ص ٣٠٥
(٢) ديوان الأمير شكيب أرسلان ـ ص ٤٩

الأسير أحد رواد النهضة الأدبية الحديثة فى القرن الماضى وأحد أساتذة مدرســة الحكمة والكلية العربية الانجيلية فى بيروت والفقيه المسلم الحصيف ، وقد اشهر بمعاونته للدكتور «فانديك» المستشرق المعروف فى تهذيب ترجمة الكتاب المقدس ، والشيخ ابراهيم الأحدب الطرابلسى وكان من أكبر أدباء عصره وشعرائهم واشتهر بنظمه لأمثال الميدانى وشرحها .

على أن مترجمى سيرة الشدياق لم يشيروا اشــارة ولو صغيرة الى مرثية امام الشعراء محمود سامى البارودى لصديقه « أحمد فارس » . ولعلهم لم يقعوا عليها فى الجزء الثانى من « ديوان البارودى » [1] ، وهى قصيدة عينية تعدل ــ بديباجتها ورصانتها ، وبنائها العربى المشرق ، وبعدها عن التكلف والتعمل ، وصدق عاطفتها ، وملامح التجديد البارزة فيها ــ كل ما قيل فى رثاء الشدياق من شعر تقليدى لا غناء فيه . ومن عجب أن البارودى نظم المرثية لصديقه فارس الشدياق وهو فى منفاه بجزيرة سرنديب « سيلان » بعيدا عن مصر ، ورأى من الوفاء للصداقة أن يشارك فى واجب لا يقوم المنفى بالاعتــذار فيه . ولعل فى قصيدة البارودى هذه دلالة خلقية على نفسية امام الشعراء ورائدهم فى ذلك العصر ، فقــد كان محمود ســامى البارودى يعلم أن جريدة « الجوائب » لصاحبها فارس الشدياق قد طبعت صورة المنشور الذى أصدره الباب العالى بالآستانة

(١) ديوان البارودى ــ طبعة وزارة المعارف ــ جـ ٢ ــ ص ٣٢ ؛

باعلان عصيان عرابى ومحاولة اثارة الفتنة فى البلاد ، وهو المنشور الذى كان عاملا من عوامل انخذال الثورة العرابية . ولكن البارودى كان من الرجال الذين يقدرون المواقف ويلتمسون الأعذار لأصحابها ، فهو يعلم أن الشدياق لم يكن طوع أمره ولا ملك نفسه حين نشر هذا المنشور السلطانى .

وقد كان يساورنا الخوف — ونحن نفتش عن مراثى الشعراء للشدياق ونبحث عنها فى بطون الكتب — أن يكون البارودى قد أحجم عن رثاء صديقه تأثرا بذلك الموقف ، ولكننا وجدنا الرجل — وهو شاعر رقيق الحس — يستجيب لداعى الصداقة ، وعاطفة الوفاء — فينظم قصيدته وهو غريق المآقى بالدمع فى منفاه . وما أروع وفاء البارودى ، وما أجمل حزنه وهو يقول فى رثاء الشدياق :

متى يشتفى هذا الفؤاد المفجع ؟
وفى كل يوم راحل ليس يرجع ؟
نميل من الدنيا الى ظل مزنة
لها بارق فيه المنية تلمع
وكيف يطيب العيش والمرء قائم
على حذر من هول ما يتوقع ؟
بنا كل يوم للحوادث وقعة
تسيل لها منا نفوس وأدمع
فأجسادنا فى مطرح الأرض همد
وأرواحنا فى مسرح الجو رتع

ومن عجب أنا نُساء ونرتضى
وندرك أسباب الفناء ونطمع !

ولو علم الانسان عقبان أمره
لهان عليه ما يسر ويفجع

تسير بنا الأيام والموت موعد
وتدفعنا الأرحام والأرض تبلع

عفاء على الدنيا ! فما لعدائها
وفاء ، ولا فى عيشها متمتع

أبعد سمير الفضل «أحمد فارس»
تقر جنوب ، أو يلائم مضجع ؟

كفى حزنا أن النوى صدعت به
فؤادا من الحدثان لا يتصدع

وما كنت مجزاعا ، ولكن ذا الأسى
اذا لم يساعده التصبر يجزع

فقدناه فقدان الشراب على الظما
ففى كل قلب غلة ليس تنقع

وأى فؤاد لم يبت لمصابه
على لوعة أو مقلة ليس تدمع ؟

اذا لم يكن للدمع فى الخد مسرب
روى ، فما للحزن فى القلب موضع !

مضى ، وورثناه علوما غزيرة
تظل بها هيم الخواطر تشرع

اذا تليت آياتهــا فى مقـــامة

تنافس قلب فى هــواها ومسمع

سقى جــدثا فى أرض لبنان عارض

من المزن فيــاض الجداول مترع !

فان به للمــكرمات حشاشـــة

طواها الردى ، فالقلب حران موجع

وهكذا يمضى شاعرنا البارودى على هذا النسق العالى من الرصانة وقوة البناء والقافية والديباجة العربية المشرقة ، والحكمة الناصعة البليغة حتى ينتهى الى تعزية « سليم » ولد فارس الشدياق وتصبيره على مصابه بمثل هذين البيتين :

فصـــبرا جميلا يا ســليم فانما

يسيغ الفتى بالصــبر ما يتجرع !

اذا المرء لم يصبر على ما أصابه

فماذا تراه فى المقــدر يصنع ؟!

أى والله يا امام الشعر العربى المعاصر ونافض الأكفان عنه : اذا المرء لم يرض نفسه على الصـــبر على المكاره ، فما الذى أعده للأقدار حتى يستطيع احتمالها ؟!

مؤلفات فارس الشدياق

(١) المطبوعة :

١ ـ سر الليال ، فى القلب والابدال . وهو كتاب فى اللغة ، ويشتمل على جزءين طبع أولهما فى الآستانة سنة ١٨٨٤ ، ولا يزال الثانى مخطوطا ، وتبلغ صفحاته ٦٠٩

٢ ـ الجاسوس على القاموس . وهو من مؤلفاته فى عاصمة الخلافة العثمانية ، وقد انصب الكتاب فى معظمه على نقد كتاب « القاموس المحيط » للفيروز آبادى . وقد تناول فيه ترتيب الأفعال على طريقة الكوفيين ، وترجم فيه لطائفة من أصحاب المعاجم منهم صاحب القاموس المحيط ، وصاحب العباب ، والجوهرى صاحب الصحاح ، وابن سيده صاحب المحكم ، وابن منظور صاحب لسان العرب ، وتشتمل بقية الكتاب على انتقاده لعبارات القاموس وخطته وتعريفاته ومعانى ألفاظه واشتقاقها وأوهامه فى تعريف المسميات . وهو من مطبوعات الجوائب سنة ١٢٩٩ هـ ـ سنة ١٨٨١ م ، ويقع فى ٦٩٠ صفحة كبيرة .

٣ ـ الساق على الساق ، فيما هو الفارياق . وهو كتاب تجلت فيه عبقرية الشدياق فى اللغة والأدب والتحليل ووصف الخطرات والنوازع ، والسيرة الذاتية ، وأدب الرحلات ، والتهكم برجال الدين وكل ذلك وغيره على أسلوب لا عهد للعربية به . وعلى الرغم من القيمة العلمية والأدبية لهذا الكتاب فان فيه إحماضا وإفحاشا ومجونا ووصف كثير من مسائل الجنس مما

كان سببا فى الحملة عليه ولومه على تأليفه على هذه الصورة ، وقد طبع فى باريس سنة ١٨٥٥ . ثم طبعه يوسف توما البستانى طبعة مشوهة سنة ١٩١٩ ، وفى سنة ١٩٢٠ طبع طبعة ثالثة على نفقة المكتبة التجارية .

٤ ـ الواسطة فى معرفة أحوال مالطة . وهو فى وصف رحلته الى جزيرة مالطة حيث أقام بها أربعة عشر عاما . وقد طبع فى مالطة أول مرة سنة ١٨٣٤ م ـ أى بعد شهور من اقامته بها ، أما طبعته الثانية فكانت فى الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٩٢٩ هـ ـ سنة ١٨٨١ م . وتقع هذه الطبعة فى ٦٦ صفحة .

٥ ـ كشف المخبا ، عن فنون أوربا . وقد طبع فى تونس سنة ١٢٨٣ هـ ـ ١٨٦٦ م ثم طبع طبعة ثانية بالآستانة سنة ١٢٩٩ هـ ، وصفحاته تبدأ من ص ٦٦ الى ٣٦١ ، فقد طبع مع الواسطة فى مجلد واحد . وهو يصف رحلته فى انجلترة وفرنسا . ويعد هو وكتاب مالطة من أمتع كتب الرحلات فى الأدب الحديث وأدقها وصفا وأبعدها عن الملل .

٦ ـ اللفيف ، فى كل معنى ظريف . وقد ذكره سركيس فى معجم المطبوعات باسم (اللفيف ، فى كل معنى لطيف) . وهو من كتب المختارات فى الأدب والحكمة والأمثال والحكايات التهذيبية والنكات اللغوية والمترادفات . طبع فى مالطة سنة ١٨٣٩ ، ثم بعد ذلك فى مطبعة الجوائب سنة ١٣٠٠ هـ ـ ١٨٨٢ م .

٧ ـ غنية الطالب ، ومنية الراغب . وهو من الكتب المدرسية فى علوم الصرف والنحو وحروف المعانى . طبع فى الجوائب سنة ١٢٨٨ هـ ـ ١٨٧١ م ، ثم اعيد طبعه سنة ١٣٠٦ هـ ـ ١٨٨٨ م . وهو الكتاب الذى قام الشيخ سعيد الشرتونى بنقده فى كتاب كامل عنوانه (السهم الصائب ، فى تخطئة غنية الطالب) وكان هذا من أسباب الخصومة بين الرجلين .

٨ ـ قصيدة فى مدح أحمد باشا باى تونس ـ طبع حجر بباريس سنة ١٨٥١ ـ وتقع فى ٦٩ صفحة .

٩ ـ المقالة البخشيشية ، أو السلطان بخشيش . طبعت فى الجزائر سنة ١٨٩٣

١٠ ـ شرح طبائع الحيوان ـ وهو مترجم عن الانجليزية . وقد طبع جزؤه الأول فى مالطة سنة ١٨٤١ ، وعدد صفحاته ٣٤٩ صفحة . وفى معجم المطبوعات العربية لسركيس أن عدد صفحاته ٣٣٩ صفحة .

١١ ـ كنز اللغات ، وهو معجم فى اللغات الثلاث : الفارسية ، والتركية ، والعربية ، وقد طبع فى بيروت سنة ١٨٧٦

١٢ ـ خبرية أسعد الشدياق . وهو الكتاب الذى روى فيه فارس الشدياق قصة تحول أخيه أسعد عن المذهب المارونى الى المذهب البروتستانتى ، وما وقع له من اضطهاد وتعذيب من البطريرك المارونى حتى لقى نحبه فى سجنه . وقد طبع فى مالطة سنة ١٨٣٣ ويقع فى ٥٢ صفحة .

وله فى نحو اللغات الانجليزية والفرنسية الكتب الآتية :

١٣ ـ الباكورة الشهية ، فى نحو اللغة الانكليزية ، وقد طبع فى مالطة سنة ١٨٣٦ بعد ذهابه اليها بعامين اثنين ، وطبع طبعة ثانية فى الجوائب بالآستانة سنة ١٢٩٩ هـ .

١٤ ـ المحاورة الأنسية ، فى اللغتين الانكليزية والعربية . وقد طبع فى مالطة سنة ١٨٤٠ ، ثم طبع ثانية فى مطبعة الجوائب بالآستانة بعد ذلك .

١٥ ـ سند الراوى ، فى الصرف الفرنساوى ، وقد ألفه بالاشتراك مع جوستاف دوجا المستشرق الفرنسى ، الذى كان له الفضل فى نشر قصيدة الشدياق فى مدح باى تونس ، وقد طبع فى باريس سنة ١٨٤٣

(ب) المخطوطة :

أما مؤلفاته المخطوطة فمنها :

١ ــ منتهى العجب ، فى خصائص لغة العرب . وقد أشرنا اليه فى أحد فصول الكتاب . ومن بواعث الأسف أن هذا الكتاب القيم التهمه الحريق الذى أصاب قصر المترجم له .

٢ ــ المرآة فى عكس التوراة ، ويقع فى أكثر من سبعمائة صفحة ، ويروى يوسف أسعد داغر أن الشدياق أوصى ابنه سليما بأن لا يطبع هذا الكتاب الا بعد وفاته . ولعل داغرا نقل هذا الخبر عن كتاب الباحث بولس مسعد الذى كان أول ما ألف من كتب فى سيرة المترجم له . ويصفه الأستاذ مسعد بأن صاحبه (أفرغه فى قالب بديع لم ينسج أحد على منواله ، وقد شرع فى انشائه على أثر ترجمته للتوراة فى لندن) .

٣ ــ النفائس فى انشاء أحمد فارس . وقد أشار اليه الكونت فيليب طرازى ، وسبقه الى ذلك المؤرخ جورجى زيدان ، وعنهما نقل الأستاذ يوسف داغر .

٤ ــ ويروى زيدان فى تراجمه أن له ديوان شعر من نظمه يشتمل على اثنين وعشرين ألف بيت . ويذكر المؤرخ طرازى هذا الخبر ، ولكن يصف هذا الديوان المخطوط بأنه (كبير الحجم ، بحيث أنه أعظم من كتاب « الجاسوس ») .

فهرس

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدقى